روايـــــة

النـهر الغـريـق

حقوق النشر والطبع محفوظة لعائلة صخر حبش (أبو نزار) يحيى عبد السلام عبد الهادي حبش

الجزء الاول

(1)

لم ينم صالح أبو وردة تلك الليلة . ظل ساهما تتقاذفه الأفكار وتتزاحم في خياله الذكريات الصاخبة، يقفز كالحسون من غصن إلى غصن . يهوى تارة،ويرتفع أخرى، وفي كل مرة كان يجد نفسه على ضفة نهر الأردن . عيناه تحدقان، تغوصان في مجرى النهر، تعبران إلى الضفة الأخرى، إلى فلسطين يرتجف نافضاً عن جسده الخوف والغرق، طارداً من أذنيه صدى كل الصرخات التي يطلقها وهو يصارع تيار النهر يستبدلها بهدير قذيفة الهاون التي انفجرت على بعد أمتار منه في أم الوتاد .. بزخات الرصاص التي غمرته كالمطر بين الصخور في واد القاط . بهدير الطائرة التي لاحقته في بيت فوريك . ثم يبتسم وهو يرى الطائرة تتلوى وقد أرسلت خلفها عواء دخانها وومضات النور . ثم تحترق هاوية على الأرض . ورغم ابتسامته إلا إنه لم ينم . لقد استمر شريط ذكرياته يتأرجح بين التوتر والانفراج . كان ذهنه يقفز إلى الأمام تارة ثم يعود فجأة في استعراض خلفي صاخب ثم لا يلبث أن يعود قافزاً إلى الأمام عائداً إلى النهر .. إلى الخوف .. إلى الغرق يتوقف عند حافة النهر ثم يطير عائداً إلى طوباس . يسمّر نفسه إلى جوار مازن أبو غزالة ويقسم أن يبقى معه حتى النهاية .

كان الطوق حول المجموعة قد احكم . وكانت الحمم تتناثر حولهم من كل الجهات وقرر مازن أن على الجميع أن ينسحبوا فوراً . وإنه سيبقى ليحمي الانسحاب ويغطيه وبدأت المجموعة تنسحب ولكن صالح تسمّر إلى جانب مازن.

ـ سأبقى معك ... لن أنسحب ... أنسحب أنت إذا شئت .

كانت عينا مازن تفيضان بفرح ممزوج بصلابة حزينة ونظراته تتألق بالإصرار الباسم .

ـ سأبقى وحدي .. هذا أمر .. انسحب يا أخ مصلح (الاسم الحركي لصالح أبو وردة) .

ـ طوباس بلدي .. إنها المكان الطبيعي لي . إذا استشهدت فأنا فداء عنك وعن الشباب . وإذا بقيت فإنني أستطيع أن أتدبر أموري في بلدنا .

ابتسم مازن . كان يمنع نفسه من الضحك وهو يتذكر المغارة .. والبطانيّة التي كان مصلح يختبئ تحتها كلما حصل اتصال مع ذويه أو مع أي مناضل من أهل البلدة .

ـ طوباس بلدنا كلنا . بلد كل الشباب . لا داعي للثرثرة وإضاعة الوقت إذا نجوت فإنني أستطيع أن أدبر نفسي خيراً منك .. أنت تعرف السبب اذهب فوراً . لا تضيع الوقت .

وتململ مصلح محاولاً التثبت بمكانه . وطغى على حوارهما هدير طائرات وانفجارات . وزخات متلاحقة .

ـ اذهب فوراً .. أنت اكثر الشباب خبرة بالطريق ومعرفة بالأرض أنت ضروري لمساعدتهم على العودة سالمين.

ـوتردد مصلح

أتلقى مازن آخر قنبلة هجومية لديه على شبح رآه يقترب منهما زاحفاً وصاح :

ـ اذهب الآن .. فوراً

وتوقف خيال مصلح فجأة .. توقف شريط ذكرياته وكانما أصاب آلة عرضه خلل ما . الشاشة في ذهنه أصبحت

سوداء .. قاتمة .. لم يعد يرى شيئاً .. ولا يسمع صوتاً لم يعد يشعر بقدرته على الإحساس حاول أن يحرك يده فاستجابت بصعوبة . اسقط كفه على وجهه . تحسس انفه وعينيه ادخل طرف رائحته بين أسنانه وعضها بحدة وبدأت الشاشة تتماوج أمام ناظريه من جديد . وبدأت هدير الانفجارات وأزيز الرصاص يطغي على الصورة، وبدا جسده يتكور في هلع وهو يلتحق بالشباب .

ظل يركض دون وعي أو اهتمام بتوازنه . يسقط فيقف . تسكت أنفاسه فيبعثها من جديد وأصوات الرصاص والقذائف تلاحقه من بعيد . ظلت عيناه تدوّران بحثاً عن الشباب . لم ير أحدا . كان هدير الطائرات يلاحقه فيلتصق بالأرض . وكان دوي الانفجارات يطغي على كل الأصوات فلم يعد يحس بوجيب قلبه المتصاعد . وفجأة توقف كل شيء فقط كان هنالك صوت طائرة تبتعد باتجاه الشرق تسمّر مصلح في مكانه .

كان نهر الأردن يتلوى أمامه عن بعد كالأفعى تفغر فاها صرخ وهو ينظر إلى الخلف .

ـ مازن .. مازن

وخطا خطوتين أو ثلاثاً إلى الخلف . ثم استعاد واحدة إلى الأمام بصعوبة .

ـ مازن .. مازن .. قتلوك يا مازن

وحدق ناحية النهر . كان يرى الموت أمامه . وكان يرى الموت خلفه بالماء، الموت بالرصاص .

وسقط في أحضان الغشية .

حرك رأسه بصعوبة وهو يشعر ببرودة تكسو وجهه . فتح عينيه رأى حوله أشباحا ترش غللا وجهه بالماء . انقبض قلبه وأحس بمرارة وذل ... اغلق عينيه متمنياً الموت على الوقوع في أيدي العدو هل ستكون نهايته الأسر . الأصوات حوله ترتفع .. اسمه يتردد على الشفاه . فتح عينيه وحدق محاولاً اختراق ضباب الغشية . انهم الشباب لقد وجدوه . لقد وجدهم ولكنهم أربعة .. فقط أربعة سأل .

ـ أين الباقون

رد هشام وهو يمسح وجه مصلح

ـ تفرقنا عند الانسحاب، وعند حافة التل وجدناك مغشياً عليك

ـ ومازن

ـ أنت آخر من كان معه

عصر مصلح وجهه بيديه وهو يتمتم

ـ لقد قتلوه .. المجرمون .. قتلو

همسح هشام جبهة مصلح بحنان

ـ لقد كان بطلاً .. بطلاً حقيقياً . لقد أعطانا الحياة . افتدانا بنفسه علينا جميعاً أن نفخر إننا عرفناه ..

وعملنا تحت قيادته . وعلينا أن نستمر في هذا الدرب . هذا هو اقل تعبير لوفائنا له هذا قدرنا .. هيا يا مصلح .. لا بد من عبور النهر .

وكأن أفعى لدغته

ـ لا .. لا أريد العودة إلى الشرق .. سأعود إلى طوباس . افضل الموت الرصاص على الموت بسم هذا الماء القذر .

شده هشام وعمر من إبطيه واو قفاه مترنحاً

قال هشام :

لا تخشى النهر . سنساعدك على العبور . لا تنسى أن عيسى العوام معنا . قبّله عيسى بحنان وهو يهنئه بالسلامة وقال :

سأحملك وأطير بك .. ولن اترك للماء فرصة الاقتراب منك .

عض مصلح شفته بغيظ وهو يحدّق نحو النهر ..

التفت إلى عيسى وقال :

ـ ولكنك لم تفعل ذلك عندما عبرنا

ـ هشام بمرارة

ـ طبعاً لم يفعل ذلك . لقد أوهمتنا انك تستطيع السير فوق الماء كأبطال المانش .. ولم نكتشف خيبتك إلا وأنت في وسط النهر . لولا عيسى لكان عليك العوض .

مرت فترة وجوم قطعها مصلح قائلاً

ـ لم اكن اعرف أن في النهر حوامات وتيارات .

رد عمر بسخرية

كنت تظنه بركة سباحة على الطراز الاندلسي الحديث . لقد رفضت حتى الاستعانة بإطار المطاط .

قال مصلح مقاطعاً لهجة عمر الساخرة

ـ ولكني كنت اسبح . أنت تعرف ذلك أليس ...

قاطعه عمر

ـ صحيح .. ولكن في المسبح عندما كان الماء لا يرتفع عن سرتك . رد مصلح مغتاظاً

ـ أنى اسبح خيراً منك

ضحك عمر وهو يشير إلى النهر مردداً ..

الماء يكذب الغطاس .. تفضل يا أبو هيف

تدخل هشام قائلاً

ـ كفى يا عمر هذا ليس وقت مماحكات طلابية انسوا أيام زمان وتذكروا أن علينا العبور بأسرع ما يمكن . فالعدو لا يزال يطاردنا وروح مازن لا تزال تحوم حولنا لتحرسنا .

قال عمر بعده

ـ لماذا تقول روح مازن . ومن قال أنه قد مات . الموت هو أحد الاحتمالات أليس بعيداً أن يكون قد نجا وتسلل إلى بيت أبي عزيز . وقد يكون جرح واسر .

هز هشام رأسه بمرارة وقد شعر لأول مرة بالدموع تغزو عينيه حاول المكابرة فخرجت كلماته ممزوجة بنشيج

مرتجف .

- يجوز .. يجوز

بعد استعراض سيل من الذكريات المرصوفة في عقله حاول مصلح أن ينام ولكن عبثاً . عادت الاسطوانة من جديد . لقد ضغط مسؤول العمليات على الزر منذ أن كلفه بقيادة مهمة خاصة . وعاد النهر يغطي أوسع الساحات في خياله .

النهر ..

الحد الفاصل بين الحلم وبين الحقيقة . بين الحب وبين الأحضان الدافئة المرشومة بعبير الأطفال . كان الحلم يموج في صخب عنيد الحب يفوز وينحدر كشلال دافق0 وكانت الحقيقة تعصر قلب مصلحة كان الخوف من الحقيقة يقتحم جدار الأمل الذي يتحصن به مصلح وكانت فلسطين مرسومة امامة عبر نهر الأردن عروسا تمد يديها يراها في الليل تمام كما يراها في النهار0فهي مفهوم أزلي.. ابدي ارتسم في ضميره وعقله وظل يحفر فيهما إلى أن تقمص ذرات كيانه. النهر.. يتذكر مصلح كل العلاقات القديمة التي جمعتهما معا. مرة على متن قارب مطاط ومرة على ظهر حبل يتماوج مع الريح. ومرة مع الصيف الذي يمتص النهر فيجعلة أرجوحة أطفال. النهر.. يتذكر مصلح تلك الإغفاءة العميقة بين ذراعية.

كانت محاولة الحب الأولى . العبور الأول لفلسطين . وقف يومها مع الشباب . الكثيرون خائفون . الكل يتصنع الشجاعة . الأفعى شيء مريع، والنهر يراه الجميع عند نقطة العبور يتخذ شكلاً محدداً . يراه مصلح في تلك النقطة رأس أفعى . السم الزعاف الموت . العبور يعني التسلل عبر أنياب الأفعى . يومها شعر مصلح لأول مرة بمذاق السم . يومها .. مات . هكذا شعر . ولم يكن يدرك أن المسافة بين الموت والحياة مليئة بالمحطات .. ففي اللحظة التي انفتحت فيها أذرع النهر لتحضنه . كانت أيدي الشباب تشده إلى الحياة ليكمل مسيرة العبور إلى فلسطين .

النهر ..

مرات عديدة أخرى أختلط فيها الخوف من الماء مع الماء . وامتزج مصلح بالنهر وفي كل مرة كان يصل إلى الضفة الأخرى، كان يصل إلى فلسطين . كان يحقق لحظة النصر الأولى .

سأل نفسه مرة . أيهما أقسى ؟ الموت بالرصاص أم الموت بالماء ؟ كان الموت بالماء بعبعاً رهيباً يستعد مصلح أن يصارعه الدهر كي يصل إلى لحظة الموت بالرصاص . هكذا تحصن مصلح وأصبح يعبر المنهمرة وأناامله تمتد لتكتب سطور التاريخ على صفحات فلسطين . كان يعرف أنه في كل مرة سيصرخ . وفي كل مرة سيطلب النجدة وفي كل مرة سيغرق .. وفي كل مرة سيصل إلى الضفة الأخرى . ما كان وحيداً حتى يستسلم للماء وللتيار أو للخوف والتراجع . كان دائماً مع الشباب ومعهم يستطيع مصلح أن يصنع المعجزات .

النهر ..

يتخيله مصلح هذه المرة وقد غزا قلبه وجيب ما عرف له في السابق شبيهاً في داخله صوت يصرخ .

ـ انك ستعبر نهر الأردن الشريعة .. نفس النهر الذي عبرته عشرات المرات انه نهر الأردن وليس نهر الامازون .

كان في السابق يصرخ .. يستنجد .. يحمله الشباب إلى الطرف الآخر يجفف ملابسه .. ويمضي .. كان دائماً أحد أفراد دورية أما اليوم وقد كلف بمهمة قائد الدورية، هل يستطيع العبور محتفظاً بالسمات الضرورية لقائد الدورية .. قائد يعني قدوة .. يعني لا يصرخ .. لا يستنجد .. لا يغرق .. بل يلبي طلبات النجدة.

النهر ..

هذا الحد الفاصل بين طموح العنصر .. والقائد .. يمتد أمامه يتربع .. يتشكل .. يتكور .. يتكون .. ويظل أمامه سوراً يخشاه اليوم أكثر مما خشيه أول مرة يوم غرق فيه.حتى الأرض من الكريمة إلى النهر يراها تغيرت والشمس والظلام يراهما تغيراً والهواء كذلك ..

والشباب .. كل الشباب كان مثلهم في العادة ينتظر الأوامر والتعليمات وينفذها . ولكنه سيكون في موضع الذي يعطي التعليمات والأوامر . لقد قاد أكثر من دورية في جنوب الأردن . كان العبور هناك سهلاً .. وكان قادراً على امتلاك صفة القدوة . أما عبر نهر الأردن فأنه لن يقود دورية .. حسم الأمر في ذهنه ونظر إلى عمر الذي كان في الطرف الآخر من القرنة يغط في نوم عميق وتمتم وهو يحاول إغماض عينيه .

ـ سأذهب في الدورية ..

وسأنفذ المهمة .. والصباح رباح

الجزء الثاني

(2)

لم تمضي ثلاثة أشهر على عودة مصلح من الدورة العسكرية في الخارج والتحاقه بالقطاع الجنوبي حتى استدعته القيادة العامة للالتحاق بالقطاع الأوسط للضرورة القصوى.. وكان يكره العمل في القطاعين الأوسط .. والشمالي وكان دائماً يردد القطاع الجنوبي جنة يا أخي ..يكفي إنك تدخل إلى الأرض المحتلة وتخرج منها دون أن تبتل ثيابك .

ويعلّق هشام ضاحكاً

ـ أي نوع من البلل تعني ..

ويتشنج عمر في ضحكة هستيرية وحروف تعليقية تصطدم بزلاعيمه

ـ البلل ... ها .. ها .. ها ..

ورغم أن مصلح قد قضى أكثر من سنة في القطاع الأوسط بعد استشهاد مازن ورغم عبوره النهر عدة مرات . إلا انه كان يلّح دائماً على الانتقال إلى القطاع الجنوبي .

وجد مصلح فرصة الانتقال سائحة بعد أن عاد من الدورة .

تقدّم بطلب النقل خطّياً .. وعندما سأل .

ـ لماذا القطاع الجنوبي بالذات ؟

ارتبك قليلاً ثم أردف ..

ـ لا بأس . فليكن إلى جنوب لبنان .

ولكن القيادة نقلته إلى القطاع الجنوبي .

كانت سعادته بقرار نقله لا توصف . ظل ينظر إلى الورقة ويحدّق فيها ويقرأ القرار ثم يعيد قراءته . ولولا طبيعة الوقورة لرقص فرحاً وسأل نفسه ماذا يفعل الآن .

كان الجواب جاهزاً .. إلى الجنوب . وفكر أن يبقى في عمّان بضعة أيام ولكنه عاد ورفض الفكرة وهو يردد، خير السفر عاجله ..

وتذكر أن عليه أن يمر لسلام على ابن عمه العامل في مكتبة اليرموك فقد تكون بعض رسائل الأهل قد وصلته . ولم يجد أبن عمه في المكتبة . قالوا له أنه ترك العمل . سألهم عن الرسائل التي تصل إليه عن طريق أبن عمه فأعطوه ظرفاً يحتوي عدّة رسائل وأستفسر عن مكان أبن عمه فأخبروه أنه التحق بالعمل الفدائي . وإنه الآن في الأغوار، وإنه يأتي بين الحين والآخر لزيارتهم في المكتبة .

لم تكن المفاجأة كبيرة له أن يجد أبن عمه ملتحقاً بالعمل الفدائي .

لقد كان دائماً يعبر عن قرفه من منظر الكتب . ويحلم بالأرض والرصاص وبشيء من البطولة . أستعرض

الرسائل بسرعة، ثلاثة رسائل من أسبانيا والرابعة بدون طوابع إنها من أبن عمه خليل . خرج من المكتبة وهو يفكر إلى أين سيذهب ليلتهم ما تحتويه هذه الرسائل . خطر له أن يذهب إلى أحد المقاهي ولكنه تردد . وقرر أن يسافر إلى الجنوب فقد خطر له أن أنسب مكان لقراءة هذه الرسائل هو السيارة المتجهة إلى الشوبك .

حقيبة يده الصغيرة تضم كل حاجياته . ألقى بها في الصندوق الخلفي للسيارة وجلس في المقعد وراء السائق . وقبل أن تتحرك السيارة امتدت يده لتستعرض الرسائل من جديد ..

الرسالة الوحيدة التي كتب اسمه عليها بالعربية كانت رسالة أبن عمه خليل رسالتان متشابهتان بألوان زاهية تفوح منهما رائحة الأنوثة . قلّبهما معاً ليعرف المرسل .. كان أسم ماتيلدا الامودا مرسوماً على صدر المغلّف كرسم زيتي في صفحة كتاب من الشعر . ابتسم مصلح وهو يضع الرسالتين في جيبه كانت الرسالة الأخيرة من أسبانيا ومرسلها خالد عواد . إنها الرسالة الأساسية بالنسبة إليه .. ولكنه بدل أن يفضها وضعها على ركبته وفض رسالة أبن عمه كانت صفحة بيضاء أنيقة تضم بضعة أسطر .

أخي مصلح .

تحية الثورة .

لا بد مما ليس منه بد . لم أعد أقتنع بأن الفداء فرض كفاية إنه فرض عين . عندما تعود من دورتك سأكون شهيداً أو مقاتلاً عنيداً . لقد كرهت الكتب . أصبحت أرى الكلمات المكتوبة على صفحات الأرض أكبر واعظم من كل الحبر والأوراق الزائفة . إنني أقرأ الآن على صدر الأرض قصصاً وقصائد وملاحم وتعاليم وأرى لوحات يتمنى أعظم فناني العالم أن يرسموا مثلها . إنها نفس اللوحات ونفس القصائد التي رسمتها بساطير الفدائيين المصبوغة بالدم والعرق . والتي أبدعت أنت ورفاقك قبلي في زرعها بين مسامات أرضنا الطيبة .

إلى اللقاء .. ثورة حتى النصر

أخوك

خليل أبو وردة

حركي (أبو إبراهيم)

18 - 1 – 1969

قلب مصلح الرسالة .. طواها ووضعها في جيبه . ثم فض رسالة خالد عواد . كان داخلها إلى جانب رسالة خالد ظرفاً يحتوي رسالة من أمه من طوباس . أعاد رسالة خالد إلى ظرفها وفض رسالة طوباس وتحركت السيارة نحو الجنوب . وغاصت عيناه تلتهمان حروف رسالة أمه .

ولدي الحبيب صالح

الله يرضى عليك ويبعد عنك شر أولاد الحرام وبنات الحرام .. وبعد ..

لقد وصلتنا رسالتك التي تقول فيها أنك على وجه امتحان مش رايحين انأخرك لأنها قصيرة وما بتفش الغل . قعدنا أنا وسلمى ويحيى ندعيلك ليل ونهار أنه الله ينجيك ويأخذ بيدك . أوضاعنا والحمد لله لا تحمل هم . سلمى الأولى في المدرسة زي عادتها ويحيى ما شاء الله صار زي النخلة وهو رجل البيت من غير شر، الله يجيبلنا إياك بالسلامة ناجح وترفع رأسنا . الجميع عندنا يهدك السلام خصوصاً عمك أبو عزيز . ليل نهار في سيرتك

وتنساش وردة بنت عمك مسعود الي صارت بتفك عن المشنقة . الكل بيقولوا صحيح وردة وبنت أبو وردة .

مش بس بتهديك السلام . عينيها لما أسمك بنضري بذوبن ذوب والسنة بتاخذ الثانوية . خطبوها ثلاث دكاتره وواحد مهندس وواحد بيطري واستاذين بس عمك ولا هو هون . هذي لصالح وبس . وخالتك أم حميد سافرت إلى الكويت عند أولادها . وكثير من أهل بلدنا سافروا على الخليج يشتغلوا ، الشغل في الطاحونه خفيف هالأيام . لكنها مستورة - أوعى تحمل هم - اللي بدك اياه احنا جاهزين من عنينا . قصة الشغل اللي حكيت عليها اذا بتعطلك عن دروسك يا حبيبي بلاش منها . ويحيى بدو يقولك كلمتين .

أخي الحبيب صالح .

منذ زمن طويل لم أكتب لك شيئاً وكذلك سلمى كنا نكتب فقط ما تمليه علينا الوالدة. ولم نكن نتصرف في لغتها حتى نجعلك تشعر بأنها تحادثك مباشرة . هذه المرة لن اكتفي بقول أمي يحيى بيسلم عليك ويبوسك وكذلك سلمى . نريد أنا وسلمى أن نعبر لك عن اشتياقنا لرؤيتك والى أحاديثك العذبة ونصائحك العظيمة . لقد بدأت أكتب الشعر . وجريدة الحائط في المدرسة تشهد على تفوقي . أما سلمى فإنها ستقول لك إنها تكتب الشعر ولكنهم لم ينشروا لها في المدرسة أية قصيدة .

في الرسائل القادمة سأرسل إليك بعض أشعاري لتقول رأيك فيها .. أما الآن فأتمنى لك السعادة والصحة .

أخوك المحب

يحيى أبو وردة

ملاحظة :- سلمى مصرّة على الكتابة لك أيضاً ..

أخي الحبيب صالح

ليتني كنت إلى جانبك استمتع بسماء غرناطة وليالي الأندلس البديعة . إنها أمنية وان كنت أشعر أنها تتحقق لي عبرك أنت . فالذي يسعدك يسعدني وفي السنة القادمة سأدخل الجامعة إنشاء الله . إنني واثقة من أن علاماتي ستؤهلني دخول أية كلية في أية جامعة . لا تؤاخذني على الغرور . ولكني كنت أتمنى لو ألتحق بجامعة مدريد . أمي تقول إنها لا تستطيع تعليمنا في الجامعة نحن الاثنين ولذلك فعلي الانتظار حتى تتخرج أنت . أرجو أن يكون ذلك سريعاً . لأنك أنت الذي سيصرف علي . لن أكون مبذرة . أمي تصر على أن أكتب لك أن العم أبو خالد عواد زميلك في الجامعة يزورنا كثيراً وقد وعدني بأن أحصل على بعثة لإكمال الدراسة .

والآن أستودعك الله . أمي تقول لك .. دير بالك على حالك وتدعي أنه الله يكفيك شر أولاد الحرام وبنات الحرام

وأسلم للجميع

أمك فاطمة أبو وردة

أختك سلمى أبو وردة

أخوك يحيى أبو وردة

عاد إلى قراءة الرسالة من جديد ، مستعرضاً الخطوط وطبيعة التعابير . سلمى بخطها الأنثوي الأنيق الواضح

ويحيى بخطه العفكشي، ولهجة أمه التي تفيض صفاء وحباً انه يشعر بالسعادة الغامرة . هؤلاء هم أهله . ولكنه يخدعهم يشعلقهم بحبال من الأوهام التي ستكشفها الأيام حتماً . إلى متى ستظل هذه اللعبة بينه وبين خالد عواد . وتذكر نهاية رسالة سلمى . وإصرار والدته على ذكر زيارات أبى خالد لهم واستعداده لمساعدة سلمى . تذكر رسالة خالد . طوى رسالة الأهل وإخفاءها في جيبه وتناول رسالة خالد وقرأ .

أخي صالح .

لا أدري إذا كانت هذه الرسالة ستصل إلى عمّان وأنت لا تزال قي الصين . ولكنني واثق إنها ستصلك حال عودتك . لذلك لن أرسل أية رسالة قبل أن أتأكد من عودتك ومن سلامتك هذه الرسالة التي تضم رسالة لك منة الأهل . لقد أخبرني والدي انه على اتصال دائم بهم ولقد أسعدني ذلك كثيراً ، أنت تعرف طبيعته المتزمتة وخاصة بعد سلسلة فضائح ابن عمه إبراهيم عواد (السلاخي) . أنه كما أخبرتك سابقاً يعمل جاسوساً للأعداء . ولا أدري إلى متى سيظل هؤلاء وأمثالهم يعيثون فساداً . لقد حققت الثورة الفلسطينية المعجزات في كثير من المواقع والمعارك، من الكرامة إلى الوحدات، ومن قلب تل أبيب إلى وادي القلط . ولكنها برأيي تتساهل كثيراً مع الجواسيس والعملاء .

الوضع عندنا مشتعل باستمرار . الطلبة العرب أصبحوا جميعهم وكأنهم أعضاء في اتحاد طلاب فلسطين . أنه المكان الوحيد الذي تنطلق منه التحركات لتغطية كل نشاطات الثورة . الوحدة الوطنية متجلية عندنا . لا يخلو الأ مر من بعض مناكفات الأ خوة المزايدين اللفظيين ولكن المواقف الحرجة تشد الجميع للثورة كالبنيان المرصوص . لقد زارنا قبل أسبوع بعض الأخوة من مكتب التعبئة مع بعض الأخوة من الاتحاد العام ووضعونا في صورة الأحداث الجارية في المنطقة وتم بعدها انتخاب هيئة إدارية جديدة للفرع . نجحت قائمتنا بفارق كبير والتزم الجميع بالكفاح المسلح .

ماتيلدا الامورا تسأل عنك يومياً . أقول لها في دورة خارجية . تريد عنوانك . وتريد أن تحضر إلى عمّان وتلتحق بالعمل الفدائي، من شدّة إصرارها أعطيتها عنوان المكتبة في عمّان، وهذا مخالف للاتفاق ولكن حتى تحل عني . قالت إنها أرسلت إليك رسالة ولم تتلق أي جواب . إنني أعرف أنك لم تعد بعد من الدورة حتى تتسلم رسالتها ..

التحق بالجامعة هذا العام شاب من نابلس اسمه بشار رمزي . إنه شقيق عمر رمزي صديقك الذي تحمس فجأة وانقلب على جماعته وسافر ليمارس الكفاح المسلّح . الشاب صورة طبق الأصل عن أخيه . هذا من حيث الشكل، أما من حيث السلوك فشتان. إنه أول شاب وقور وهادئ ورزين يصل إلى مدريد بعدك أنت . لقد أخبرنا أن والده قد سجن بتهمة توزيع السلاح وأغلقوا دكانهم بالشمع الأحمر . لقد تذكرت حكايات عمر عن والده وعن فن تجارة النوفوتيه في نابلس استغربت كيف تحول موزع التحسيس على أفخاذ الحريم إلى موزع أسلحة، ولكنها الثورة قادرة على صنع المعجزات ...

إنها لا تحرر الأرض .. فحسب .. إنها تحرر الإنسان وهذا هو سرّ عظمتها .

قررت في نهاية هذا العام أن أزور الأهل، مهما كان الثمن، قد أتعرض للتحقيق أو أعتقل أياما . ولكني واثق إنني سأخوض التجربة بنجاح .

بالمناسبة . عند وصولي إلى طوباس سأطلب من أبي أن يخطب لي أعظم بنت في بلدنا . لا تخف أنا لا أقصد وردة .. مبروكة عليك .. إنني أقصد سلمى أختك . هذا إذا وافقت . وإلا فإنني لن أذهب إلى طوباس .

بانتظار ردك

أرجو تبليغ التحية لعمر رمزي ولكل الشباب

وثورة حتى النصر،

خالد عواد

الجزء الثالث

(3)

كانت السيارة قد قطعت شوطاً بعيداً نحو الجنوب . ودع عمّان وصخبها وفتح خياشيمه ليعب من ريح الجنوب ملامح المستقبل الذي تمناه . ركّاب السيارة يغرقون في صمت . أكتشف أن راديو السيارة كان يفرض الصمت مع فيض الألحان وصوت أم كلثوم " أصبح عندي الآن بندقية " .

غاب في ذكريات طويلة مع صوت أم كلثوم . مع يا ظالمني هجرتك .. وغلبت أصالح .. وكل تلك الألحان البالية التي كان يصفها بالذليلة .. كان يحب أم كلثوم وهي تغني رباعيات الخيام ونهج البردة . أما غير ذلك فكان يراه مبتذلاً . وكان يعبر عن موقفه الحاسم من كوكب الشرق بأنها ما لم تكرس فنها لقضية الشرق . لقضية فلسطين فهي ليست كوكباً وإنما أفيوناً ولكن صوتها يغمر قلب السيارة . يغني للبندقية وللقضية جعلاه يسبح في خيال جامح يجمع الحب والأرض على شعيرة نيشان البندقية همسات والدته تحوطه بدعواتها وأشعار يحيى التي نشرت في جريدة الحائط وسلمى .. أن خالد عواد يصفها بأنها اعظم بنت . هل هي حقاً كذلك .وبماذا يرد على خالد عروسا والى جانبها وردة . أنه يتذكر وردة جيداً ويتخيلها دائماً وصوت أم كلثوم يلعلع فيجعلها أقرب إلي مخيلته . وتظل ماتيلدا بشعرها الفاحم المسترسل وعيناها الصاخبتان وقوامها المشوق تعيده إلي أحضان الأندلس هذا الجو الأنثوي الحنون المتداخل مع أول أغنية عن فلسطين يسمعها بصوت أم كلثوم جعلته يتمطى ويسرح بعيداً بعيداً إلي غرناطة .. وامتدت يده المرتجفة فتناول رسالتي ماتيلدا فتحهما معاً .. وجد رسالة طويلة مؤرخة في 15 أيار 1969 . أشتم من النظرة الأولى رائحة الشعر في الرسالتين ورغم معرفته بأن ماتيلدا تحب الشعر ولكنها لا تكتبه عاد يسترجع الماضي متنقلاً بين أسطر ماتيلدا وليالي الأندلس الصاخبة تطل من بين حروفها ممزوجة بالصفاء والنقاء الذين كانا يطغيان على صخب عيون ماتيلدا ساعة الحديث عن الوطن .

أعاد قراءة الرسالتين من جديد، وببطء كأنما يحاول أن يربط الماضي والحاضر والمستقبل .

حبيبي صالح

هل تسمح لي أن أقحم نفسي على حياتك الجديدة . أنني أدرك جيداً خصوصيتها وادرك معنى الأولويات بالنسبة إليك . ولكني أشعر أن من حقي عليك أن أكون جزء من التفاصيل التي تعيشها . لو كنت رصاصة في جعبتك . أو قنبلة أو خارطة أو بوصلة . أو أي شيء يكون في يديك . ما طمحت مرّة أن أكون بندقية فأنني اعرف حجمي الحقيقي ولا أطمح بالكثير لقد مرت تسعة أشهر بطولها على لقائنا الأخير السريع في مدريد . اكتشفت في ذلك اللقاء كم تغيرت وكم حولتك الأرض إلي عاشق موله بحبها منسجماً مع صخورها وأشجارها . أنا لا احسد فلسطين على حبك العظيم لها . فهي الاجدر والأحق . ولكنني كنت اطمح أن يكون لي مكان صغير في قلبك إلي جوار حجمها الشاسع . كنت أتمنى أن أكون ذرة . بل قطرة ندى بين مساماتها ولهذا الححت في طلب عنوانك . وعندما أخبرتني انك بدون عنوان محدد اسقط في يدي . ولكنك وعدتني بالحصول على عنوانك عندما يتحدد . وكنت أعرف أن خالد صديقك هو أملي الوحيد .

وبعد الحاح متواصل عليه حصلت أخيرا على العنوان . وقررت أن أكتب إليك . وسأظل أكتب إليك . لا ادري إذا كنت سترد علي أم لا . ولكنني غرقت في لجة أيامنا الأولى . أيام كنا نخترق السحب معاً فوق بساط الأمل الوردي . متنقلين من مدريد إلي غرناطة وطليطلة .. ثم نطير إلي القدس، وطوباس ونعود وبين أيدينا رف الفراشات يطرن وجناتنا بلون الحب الخالد .

حبيبي صالح

لقد علمتني أنت كيف يكون الحب على الطريقة العربية .. الحب مليء بالإخلاص. والأمل والوفاء . كنت تقول لي أنك تقرأ في عيني وفي شعري قصصاً عربية طويلة وملاحم أندلسية بها إيقا ع الموشحات . أتذكر كيف ترجمت لي قصائد ابن زيدون وولادة، وابن عبدين وابن هاني . كنت أنت الذي فتح عيني على أعظم شاعر من بلدي . لوركا .. وكنت أنت الذي علمني الكلمات العربية ومرادفاتها الأسبانية . ألم نترجم معاً قاموسنا الخاص . ماتيلدا .. كنت تقول إنها تعني بالعربية خديجة . وكم أسعدني أن تكون خديجة العربية امرأة عظيمة شعرت بالاعتزاز يومها .

وحتى فيديكو غاسيا لوركا كان بالنسبة لنا، فؤاد فارس كرم وماريا مريم، أما فرانكو فكنت تؤكد انه فرانكشتاين . عندما حاصرني الإصرار على الكتابة إليك غم خشيتي من عدم ردك وجدت الحل . صالح أبو وردة يعني بابلو نيرودا وأنا ماتيلدا . ألم تكتب لي مائة قصيدة حب . إنني سأرد عليها واحدة واحدة .. وهذه ستكون رسالتي الأولى وفي كل مرة سأعيش مع قصيدة لأرد عليها وسأولد من جديد إذا وصلتني ملاحق القصائد مكتوبة بخطك أنت .. ومن مواقعك الدافئة المليئة بالحب الإنساني .. واليك الرسالة الأولى

حبيبي صالح

لست نبتة ولا حجرا ولا نبيذا

لقد ولدت من الأرض وسأبقى

فأنت مصدر ضوئي اللانهائي

واسمك سيظل يمطر زيتونا

ويصنع بحراً مليئاً بنار الأفق

أنا النهر الغريق في قسمات بسمتك

المرتجف على سياجك الليلكي الناصع

الباحث عن الدفء أبدا بين أحضانك

المتماوج فرحا في عالم عينيك

ليرسم فوق الأرض التي تحبها

لوحة الحب .. والسلام .. والحرية

حبيبتك أبدا

ماتيلدا

مدريد في آذار 1969

كانت الرسالة الثانية مجرد صفحة واحدة تابع مصلح قرائتها وكأنها جزء لا ينفصل عن الرسالة الأولى ..

حبيبي مصلح

هذه رسالتي الثانية إليك . لم أتتسلم جواباً للرسالة الأولى . اكتفيت بقصيدة الحب الثانية يا عزيزي بابلو ..

وعليا سارد.. يا حبيبي.. للقبلة ألف طعم وطعم

أنت علمتني ذلك

وليالي طليطلة تشهد على أن ربيعنا

كان مليئاً بالمطر

لقد أغرقتني

وحولتني إلي كتلة من الفصول

المنسوجة حول كرتك الأرضية

نهر الأردن يغرق مثلي بين ذراعيك

والمتوسط يحاول أن يتمدد بيني وبينك

ولكني اطوي كل شيء لأتحد بك

من مسامك وطلعي تولد زهرة المدائن المقدسة

حبيبتك أبداً

ماتيلدا

مدريد في أيار 1969

الجزء الرابع

(4)

لم يجد مصلح أية صعوبة في الوصول إلي مقر القطاع الجنوبي في الشوبك. وجد الحراسات وعدد من سيارات اللاندروفر العسكرية المكتوب على أبوابها بالخط العريض "فتح" تطلع إلي الأعلى، خيل له انه سيجد يافطة مكتوب عليها (قيادة القطاع الجنوبي) شرد ذهنه قليلاً

ـ من تريد يا أخ ؟

وحدق مصلح في وجه الشبل الذي وجه إليه السؤال. كان قد اقترب منه حاملاً بندقية التي تكاد تفوقه طولاً. والتي تكاد ماسورتها أن تقلع عين مصلح.

رد بهدوء وهو يزيح ماسورة البندقية قليلاً

ـ عايز المسؤول

رد الشبل

ـ مش موجود

ابتسم مصلح

ـ عايز نائبه

أيضا مش موجود

كان أحد الشباب الحراس يتجه بتكاسل بعد أن اضطر أن يقطع لعبة الطاولة التي كان غارقاً فيها.

اتجه مصلح ناحية الشاب متجاهلاً الشبل الذي ما لبث أن قفز كاللولب قاطعاً عليه الطريق وهو يرد

ـ قلت لك مش موجود

رسم مصلح على وجهه اكبر ابتسامة تخيل انه قادر على صنعها وهو يحدق في عيني الشبل ؟ وقال

ـ لا بأس سأتحدث مع الخ

وأشار إلي الشاب الذي وصل إلي محاذاته، ثم استطرد

ـ طبعاً إذا سمحت

ـ ماذا تريد يا أخ (سال الشاب)

ـ أنا محول من القيادة العامة إلي قيادة القطاع الجنوبي وجئت للالتحاق بواجبي.

مد الشاب يده مصافحاً وهو يردد

ـ أهلاً وسهلاً

ارتفعت قرب الباب ضجة

ـ من .. مصلح هنا .. أهلاً أبو هيف

كان صوت عمر ينطلق كالرشاش وهو يندفع باتجاه مصلح ويحتضنه بحرارة جعلت الشبل يتوارى عن الأنظار. شد عمر مصلح من يده وقفزا معاً بضع درجات أصبح بعدها في مكتب إدارة القطاع

ـ طلبت إجازة فقالوا لي أن احسن مكان لقضائها هو القطاع الجنوبي . اكله ومرعى وقلة صنعه . ولذلك نقلوني إلي هنا .

فنفر عمر فاه وهو يردد

ـ نقلوك

قال مصلح وهو يناوله قرار القيادة

ـ أجل

هب عمر وعانق مصلح بسعادة غامرة وهو يردد

ـ مبروك .. مبروك يا عم .. الآن سيحلو العمل هنا وعلا صوته ملحناً

ـ رجت ليالي زمان ..

ثم هز رأسه وهو يتمتم

ـ متى يا هتلري ستعود ليالي الأندلس

ـ بعد التحرير أن شاء الله

وضع عمر راحتيه على كتفي مصلح وحدق في عينيه متسائلاً بخبث

ـ هربت من النهر يا شاطر ..؟ ها ؟

ورد مصلح وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة بغيظ واضح

ـ سامحك الله . هل كان ضروري أن تذكرني به .

ورفع عمر راحته عن كتف مصلح وهو يضحك بهستيرية خبيثة ثم توقف عن الضحك فجأة وقال ـ وماذا ستفعل بعد المشروع يا شاطر ؟

سأله مصلح بحدية

ـ أية مشروع ؟

استمر عمر منهمكاً .

ـ أية مشروع .. أية مشروع ياجاهل . ألا تعلم أنه خلال شهر سيتم توصيل البحر الميت بخليج العقبة

ـ مش معقول

ـ جاهل . ولا تدري عمق الماء سيصبح أربعمائة متر وعرضه عشرات الكيلومترات . أهلاً أبو هيف هارب من الدلف إلى المزراب .

جمع مصلح أفكاره ومعلوماته وتخيلاته فوصل إلى حقيقة النكتة التي يطلقها عمر فقال

ـ مشروعك فاضي .. العب غيرها

ضحك عمر وقال

ـ هذا اسمه مشروع الحدود الآمنة . إنه أحلى حاجز طبيعي . ولو كنت مكان العدو لنفذته فوراً .

ابتسم مصلح وهو يردد

ـ هل اكتشفت الآن من هو الجاهل فينا . ماذا تسمي من يعتقد أن العدو اكتفى توسعا . وأنه يطمح في مساحات أخرى تشمل هذه الغرفة التي نحن فيها . أما عن الحدود الآمنة ..

سرح فكر مصلح قليلاً وهو يهز رأسه والابتسامة تعلو شفتيه واستطرد .

ـ آمنة من مَن ؟ خليها على الله . أن العدو الصهيوني لا يخشى إلا الفدائيين . ونحن شياطين لا تقف الحواجز الطبيعية ولا الصناعية حائلاً دون أهدافنا . حتى النهر رغم سفالته .. أنا قطعته وسبحته أحسن منك يا .. يا أستعجله عمر قائلاً

ـ يا .. جاهل قلّها .. اشتمني مرّة من نفسي . عوّد لسانك على الزفر .. الله لا يردك .

وغاب الاثنان معاً في ضحكة طويلة قطعها مصلح وهو يقول خالد عواد يهديك السلام . وكذلك أخوك بشار ..

سأله عمر بتلهف

-صحيح .. هل وصلتك أخبار..

مد مصلح يده إلى جيبه وأخرج رسالة عواد وأخذ يقرأ

" التحق بالجامعة هذا العام شاب من نابلس اسمه بشار رمزي إنه شقيق عمر رمزي صديقك الذي تحمس فجأة وانقلب على جماعته وسافر معك ليمارس الكفاح المسلّح.

الشاب صورة طبق الأصل من أخيه . هذا من حيث الشكل أما من حيث السلوك فشتان . إنه أول شاب وقور وهادئ ورزين يصل إلى مدريد بعدك أنت لقد أخبرنا بشار أن والده قد سجن ستة اشهر وخرج بكفالة وبتهمة توزيع السلاح . أغلقوا دكانهم بالشمع الأحمر . لقد تذكرت حكايات عم عن والده وعن فن تجارة النوفوتيه في نابلس استغربت كيف يتحول موزع التحسيس على أفخاذ الحريم إلى مزع اسلحة . ولكنها الثورة قادرة على صنع المعجزات . إنها لا تحرر الأرض فحسب إنها تحرر الإنسان وهذا هو سر عظمتها .

أرجو تبليغ التحية إلى عمر رمزي ولكل الشباب "

خالد عواد

كان عمر يصغي بانتباه شديد وهو يهز رأسه باسماً وما أن أنهى مصلح القراءة حتى ارتفع صوت عمر يملأ الغرفة .

ـ العكروت سلوكي مش عاجبيته خالد بن عواد .. ومستكثر على أبي يكون وطني.. كأنها الوطنية يعني لازم تكون حنبلي يا أخي هذه الأخبار عارفها .. كلها قديمة.. وأبى طلع من السجن مكسورة ايده وطايره أسنانه وما اعترفش أبدا ورجعت أهربله السلاح من أول وجديد .

الجزء الخامس

(5)

ـ القطاع الجنوبي جنة

كان هذا جواب مصلح الدائم لكل من يسأله عن الأوضاع .

والجنة بالنسبة لمصلح لم تكن الراحة . بل المزيد من العمل فالقطاع يغطي مساحات شاسعة وفيه مجالات مختلفة للعمل وأهم مميزاته بالنسبة لمصلح هو غياب النهر.

ـ ابعد عن الشر وغني له

هكذا كان يرد على عمر كلما ذكّره بالنهر . وكان عمر يقول له معلقاً .

ـ وطي صوتك يا مصلح .. حتى لا يسمعك

ويوم وصلت رسالة من القيادة العامة تطلب من مصلح مراجعة غرفة العمليات للالتحاق بالقطاع الأوسط للضرورة القصوى كان تعليق عمر الساخر .

قلت لك وطي صوتك .. ما رديت علي . تفضل يا أخ .

النهر يعلنها لك بصراحة وراك والزمن طويل . ماذا ستفعل الآن ؟

ـ طبعاً سأذهب

كان حزيناً بل مكتئباً وهو يحاول المقارنة بين حالته النفسية وهو يصل إلى بئر السبع وينفذ مهمته ويعود دون أن يعرف للخوف طعماً، وبين مجرد رؤية أنياب النهر المسمومة .

يحاول أن يقارن بين متعة العمل في إنشاء القواعد في سفوح ضانا وكهوف وادي فنان وفيفا وغور الصافي . حتى عبور البحر الميت صار بالنسبة له أمراً عادياً . كان يحاول أن يقارن كل هذا بتجربته المريرة مع نهر الأردن . شيء واحد كان يمكن أن يغير كل هذه المعادلة .. النفق . لقد سيطرت على مخيلته صورة تعلمها في الدورة وهو يشاهد فيلماً عن الأنفاق . ثم هو يشاهد هذه الأنفاق على الطبيعة ويسال . لماذا لا يحفر نفقاً تحت النهر يربط بين ضفتيه ولكنه تذكر الجواب على سؤاله الذي طرحه على القيادة يوع عاد من الدورة مباشرة . كان الجواب هو الذي جعله يصر على الانتقال إلى القطاع الجنوبي .

أو إلى جنوب لبنان قالوا يومها . أن الموضوع غير قابل للتنفيذ لسببين . الأول اقتصادي وفني كما يقول الجيولوجيون وخبراء المياه . والثاني أمني حيث أن تحديد نفق أو أكثر للعبور يمكن العدو من رصد أماكن العبور. وهذا يفقد الدوريات عنصر المفاجأة في المكان وحيث أن باستطاعة العدو الرصد الدائم لهذه النقاط المحددة للعبور فان ذلك سيؤدي إلى فقدان الدوريات عنصري المفاجأة في الزمان والمكان على حد سواء .وهذا يعني الرمي بالدوريات إلى أحضان كمائن العدو .

وطلب نقله خطياً إلى القطاع الجنوبي، ونقل . وها هو يعود أدراجه إلى القطاع الأوسط، حزيناً مكتئباً كما لم يكن في حياته من قبل . لقد ظن أنه وضع في المكان المناسب بل والمناسب جداً في القطاع الجنوبي . وأستغرب كيف يفكر الأخوة المسؤولون. ولماذا يحرمون الثورة من فعاليات وكفاءات تنطلق عبر الإبداع الذاتي للفرد عندما

يكون في مكانه المناسب . لقد سيطرت عليه عقدة الإنسان المناسب في المكان المناسب طيلة طريق عودته الكئيبة إلى الشوبك إلى عمّان تذكر الكثيرين من الذين يحتلون مواقع ليسوا كفؤاً لها رغم إمكانياتهم، النجاح في مواقع تتناسب ومؤهلاتهم . وتذكر قصصاً وحكايا كثيرة من غوار الطوشة في الشام هنج في بنج في فيتنام .

وضحك بمرارة دفعت عمر إلى سؤاله عن سبب ضحكه فقال :

ـ تذكرت حمام الهنا

رد عمر ساخراً

ـ فعلاً .. أنت بحاجة إلى دوش بارد . هل الماء بارد في حمام الهنا .

ـ لا أدري . ولكنه مفاجئ يأتي ويروح حسب الظروف . ولكن يبدوا أن هنالك من هو مصر على الثورة حتى النهر .

ابتسم عمر الذي كان يقود السيارة العسكرية بدفاشة غريبة وتحدث بالأسبانية مذكراً مصلح بوجود عناصر في السيارة ولا يجوز التخبيص أمامهم .

رد مصلح بالأسبانية

ـ إنهم يعرفون أكثر مني ومنك ولكن لا بأس فلن أخبص قال عمر :

ـ صحيح أنت مقهور وأنا أفهم شعورك الآن هيا حدثنا عن حكاية حمام الهنا

ـ ببساطة . أحد الموسورين قرر أن يفتح حماماً جديداً في الشام . ولما كانت دمشق مليئة بالحمامات فقد قرر أن يكون حمامه متميزاً . وسأل نفسه . مم يتكون الحمام . وكان الجواب سهلاً

أولاً الماء الساخن . وكل الحمامات تستطيع أن تؤمن الماء الساخن . وثانياً الصابون الجيد . وما أكثر هذا في الأسواق وثالثاً المدلك الكفؤ . آه .. هذا أمر يحتاج إلى خبرة ولياقة وموهبة . ولا بد من توظيف خبير في التدليك لتغطية هذه المهمة . ثم ماذا .. رابعاً بوفيه يعيد للمستحم أنفاسه المتلاحقة بعد حفلة التدليك . وهذه أيضاً تحتاج إلى من يتقن فن تحضير المشروبات بأنواعها .أعلن ذلك الموسر في جرائد الشام عن حاجته إلى خبير في التدليك وفني البوفيه الحمامية .

وتقدم الكثيرون ونجح المستحقون . وتسلم غوار الطوشة إدارة الحمام . وغادر الموسر بعد سفرة طارئة ليتفقد حمامه . وجده في حالة سيئة من حيث الدخل .

قال في نفسه : إذن الأمور ليست على ما يرام . وشك أن المدير يلفلف ولكنه كان مقتنعاً بأمانته فطرد الفكرة فوراً ثم قرر أن يخوض تجربة الزبون .

وجد المدلك جاهلاً في أمور التدليك .. سأله

ـ ألست خبيراً في التدليك ؟

ـ لا أنا خبير في شؤون البوفيه ..

هز رأسه وخرج وبقايا الصابون لا تزال تغطي أجزاء من جسمه . جلس في البوفيه وطلب فنجاناً من القهوة وانتظر طويلاً .. ثم جاءت القهوة .. وعندما تذوقها بصقها وصاح منادياً البوفجي ..

ـ أظنك خبيراً في شؤون البوفيه ؟ ما هذا القرف الصابون الذي يحتويه الفنجان ؟

ـ آسف يا سيدي .. أنا لا أعرف شيئاً في شؤون البوفيه أنا خريج معاهد لندن في التدليك .

هز الموسر رأسه

وابتسم بمرارة وابتسم مصلح في تلك اللحظة بمرارة شديدة لاحظها عمر فأستعجل باستمرار وهو يردد :

ـ ثم ماذا أكمل

ـ نادى الموسر صديقه مدير الحمام . وسأله

ـ ما الذي صنعته .. لماذا وضعت المدلك في البوفيه والبوفجي في التدليك

ضحك مدير الحمام وهو يردد مستغرباً

ـ ولو يا معلمي .. هل تريد أن افشل أنا في مهمتي لو وضعت كل منهما في مكانه ماذا تظنني سأفعل . سيزبط الفيلم وأظهر أنا على حقيقتي على السكين يا معلمي .. لا افهم في الإدارة .

ضحك مصلح بمرارة غريبة واستمر ضحكه الذي تحول إلى سعال شديد كان أول شيء فعله عمر بعد نزولهما من السيارة وهو سؤال مصلح .

ـ هل تعتقد أن من المسؤولين من يلعبون بنا الكورة لإخفاء عجزهم . حدق مصلح في عينيه وقال .

ـ أنا لم أقل ذلك

ـ مش صحيح .. لقد قلته وبوضوح . وإلا ما الذي تعنيه قصة حمام الهنا إخفاء العجز بإظهار عجز الآخرين أليست هذه هي الحكاية .

هز مصلح رأسه بمرارة واسى وهو يتمتم .

ـ إذا توقف الأمر على هذا .. فالدنيا بخير سأله عمر

ـ وهل هناك ما هو أسوأ من ذلك

ـ أجل

ـ وما هو

كانا قد ابتعدا عن السيارة باتجاه المكتب في جبل الحسين . توقف مصلح وترك حقيبته تسقط من يده على الأرض وقال :

ـ هل سمعت حكاية هنج في بنج ؟

ـ ومن هذا

ـ هنج في بنج اسم يعرفه الفيتناميون . كان يحتل موقعا مسئولا في الجبهة الوطنية . ثم أكتشف من خلال وثائق الأعداء أنه عميل نسايجون وعند التحقيق معه اكتشف المهمة الوحيدة التي كان مكلفاً بها .

سأله عمر بلهفة

ـ وما هي ؟

ـ ببساطة . وضع الإنسان المناسب في المكان غير المناسب . حمل مصلح حقيبته وبدأ يجرجر ساقيه باتجاه الطريق الرئيسي والى جواره كان عمر يحاول أن يجمع حروف آخر سؤال لديه .

ـ إذن أنت تعتقد أن وراء استدعائك أما غوار الطوشة أو هنج بنج .. أليس كذلك.

أو انشتاين

وما دخل انشتاين في الموضوع ؟

ـ إنها النسبية يا أخي . فأنا الذي أخاف النهر وأكرهه قد قطعته مرات ومرات . ولم أغرق فيه . طبعاً حتى هذه اللحظة . ولكن هنالك من غرقوا وماتوا من أول محاولة عبور .إذن فأنا نسبياً قد أكون مؤهلاً لمهمة إنقاذ الغرض حتى الجاهل يدرك أنني احسن من الغرقى . هذا فيما يتعلق بالنهر .

دخل مصلح وعمر مكتب العمليات وجلسا في انتظار الدخول لمقابلة المسؤول .

كان انشتاين هو آخر الصرعات التي زرعها مصلح في ذهنه فقال له .

ـ يا رب يكلفوك بمهمة إنقاذ الغرقى . هذا جول مزبوط وسيكون عيسى العوام أول مشروع غريق تنقذه يا عم أبو هيف .

ضغط مصلح على فخذ عمر وهو يردد

الجزء السادس

(6)

ـ الكلام المناسب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب

قال مسؤول العمليات وهو يلقي بذراعه على كتف مصلح

ـ مهمة خاصة . وعليها يتوقف الكثير . طوباس هي مفتاح النصر . وعلى المهمة التي ستقودها يتوقف نجاح أو فشل أعظم تجربة ستقوم بها الثورة الفلسطينية . لقد عمدنا إلى تشكيل دوريتكم من المقاتلين الذين لهم دراية وخبرة في المنطقة . حاولنا تجميع دورية طوباس الشهيرة التي كانت بقيادة الشهيد مازن لتقودها أنت .

منذ أن اصطدمت طبلة إذن مصلح بكلمة طوباس لم تعد كلمات مسؤول العمليات تجد طريقها . كان قد سرح بعيداً . وتراكمت أمامه جبال الذكريات العريقة . كان اكتئابه قد ازداد فازدادت وتيرة العصبية لديه مما جعل المسؤول يلاحظ حالته فيسأله ؟

ـ ما بك .. هل أنت مريض ؟

ـ لا . لست مريضاً

ـ هل أصغيت لكلامي جيداً . هل فهمت طبيعة المهمة التي ستقودها .

ـ لم اكذب عليك . بعد كلمة طوباس لم افهم شيئاً . تذكرت مازن وسرحت في سلسلة من الذكريات القديمة .

ابتسم المسؤول وعاد يربث على كتف مصلح ويقول

ـ هذا رائع . أن كل ما حدثتك عنه يتصل بذكرياتك القديمة في منطقة طوباس ومع مازن بالذات .

ـ ماذا تريدني أن اعمل في طوباس ؟

ـ انك ستقود دورية طوباس . دورية الشهيد مازن لتنفذ عملية خاصة .

تذكر مصلح أن عمر ينتظر خارج الغرفة فطرأت عليه فكرة إدخاله ليساعده في الخروج من المأزق . قال :

ـ جاء معي من الجنوب الأخ عمر رمزي . كان معنا في الدورية . هل يمكن إدخاله بدل أن يظل في الخارج

رد مسؤول العمليات

ـ إننا نبحث المهمة مع قائد الدورية . ولا يجوز أن يعرف أحد من أفرادها شيئاً عن طبيعتها الحقيقية وعن ارتباطها بعمل اكبر . أفراد الدورية ستعلمهم أنت بتفاصيل المهمة وكأنها مهمة عادية منفصلة وليست سلسلة من عمل كبير .

عاد مصلح يسأل .

ـ هل سيذهب عمر رمزي في الدورية ؟

ـ أعتقد انه تم الاتصال بكل أفراد الدورية للحضور ولكنك أول من تم استدعاؤه.. لقد استدعينا .. فتح مسؤول

العمليات درج مكتبه وأخرج ورقة صفراء صغيرة وأخذ يحدق فيها ثم قال ..

ـ استدعينا .. فهمي .. فهمي علاء الدين

قال مصلح مستغرباً

ـ فهمي علاء الدين .. لقد استشهد في معركة وادي الباذان .

ـ صحيح .. ولذلك لن يذهب معكم

واستطرد مسؤول العمليات

ـ عيسى العوام

وتنهد مصلح وتنفس الصعداء وكأن مجرد ذكر أسم عيسى يعني حصوله على سمة مرور عبر نهر الأردن .

سأل متلهفاً .

ـ هل جاء عيسى

ـ لا قلت لك سيأتون بعد أن يتم بحث الموضوع معك يا قائد الدورية .

وأستطرد مسؤول العمليات يقرأ ورقته الصفراء

-عمر رمزي

-جاء معي من الجنوب

-هشام لطفي

قفز مصلح فرحا

ـ هشام لطفي . هذا خير قائد للدورية .. وحدق مسؤول العمليات في وجه مصلح قائلاً

ـ أنك أعلاهم مرتبة . لقد عدت من دورة عالية وكنت طليعة الدورة . وتاريخك النضالي يؤهلك لأن تقودهم جميعا .

-إلا في هذه المهمة

استطرد مسؤول العمليات

ـ لا أريد تواضعات وسخافات . أريد مهمة ناجحة إنها المفتاح لنصر أكبر . ألم تفهم بعد . وسيكون معكم مجموعة من الشباب المقاتلين الخبراء في المتفجرات وزراعة الألغام . وعاد مسؤول العمليات يشرح لمصلح تفاصيل المهمة ناشراً أمامه خريطة كبيرة مردداً اسم طوباس والزبابدة، والمالح، والجسر، والنهر، والحرب المتحركة وسلسلة من أسماء المواقع التي يعرفها جيداً ، ولكن مصلح عاد فسرح من جديد .. استقرت طوباس كلها في مخيلته وسيطرت عليه المغارة .. البئر .. البيت الأخضر أمه تطل من النافذة . وسلمى تحمل الخبز إلى الشباب سماها مازن يومها ذات النطاقين، ويحيى الصغير يحمل الأخبار إلى أبي عزيز . ومازن يقول :

يا مصلح .. أخوك يحيى فلته . سيكون مقاتلاً عظيماً هل تعرف ماذا سيحضر لنا الليلة .

ـ لا أدري .. ماذا يستطيع طفل في سنه أن يحضر قوس ونشاب أم زجاجة مولتوف .

صحك مازن

-لماذا لا يحضر صندوق قنابل ملز 36.

قال مصلح مستغربا

-ومن أين له القنابل..؟

استطرد مازن

ومعها ثلاث بنادق ورشاش برن هذا السلاح حصل عليه أبو عزيز ويريد أن يسلمنا إياه .

ـ هل يستطيع يحيى أن ينقل هذه الأسلحة

ـ طلبت منه أن يحضر لنا القنابل فقط . وان تبقى الأسلحة الأخرى عند أبى عزيز لاستخدامها في العمليات الداخلية وتوزيعها على التنظيم . القنابل نحن بحاجة لها ..

ويحيى سيزودنا بها غداً ..

ـ ولكن من أين لآبي عزيز هذه الأسلحة ؟ لابد إنها من مخلفات الجيش الأردني .

ـ هي كذلك .. هكذا تقول رسالته .

وعندما ألقى مازن آخر قنبلة هجومية لديه على شبح رآه يقترب منها وهو يصيح .

-اذهب الآن فوراً..

تكورت الذكريات كقطعة جليد بارد استقرت في جوفه فجمّدت الدماء في عروقه . لقد مرت سنتان ولا يزال صوت مازن يغزوه في كل لحظة شرود . لقد ودع الكثيرين من رفاقه . وأصبح يردد مع زملائه قائمة الأصدقاء الذين سقطوا ولكن مازن بالنسبة له شيء آخر . كان أسمه يتردد ليس كمجرد أسم في قائمة .. وإنما كرائد تجربة وكطليعي يفرض نفسه مقاتلاً . وجملته القصيرة النابضة تغزو المجالس ليؤكد أن الاستشهاد الحقيقي هو المعنى الأشمل للحياة التي من أجلها يكون للحياة معنى . وان البطل الذي يموت يولد من جديد حاملاً راية شعب بأكمله يرسم قصة الحيلة بدمه على صفحات التاريخ .

الجزء السابع

(7)

ـ سأذهب في الدورية . وسأنفذ المهمة . والصباح رباح . نظر إلى عمر الذي كان في الطرف الآخر من الغرفة يغط في نوم عميق . عض شفته غيظاً ثم عاود التحديق في وجه عمر . قرر أن يهرب من دوامة النهر إلى الماضي البعيد . قلب صفحات متراصة ليقف عند أول لقاء له مع عمر . تمددت في مخيلته طائرة تربض في مطار قلنديا وتذكر تلك المباني الجميلة الأنيقة التي رآها في طريقه من القدس إلى المطار . سأل نفسه من يسكنها اليوم يا ترى ؟ ثم عاد وركز اهتمامه على الطائرة . فكانت أول مرة يرى طائرة عن قرب . وأول مرة تدوس فيها قدمه سلم الطائرة وأول مرة يدخل فيها قلب طائرة . تلك القاعة المتراصة بالمقاعد أين يجلس ورائحة المضيفة العبقة تشده فيرتبك . فكاد يشعر أن عينيها خلقتا من أجله ليغرق فيهما . وهمس في سره، لو كنت طياراً .. يجلس في أقرب المقاعد مسمراً عينيه على المضيفة المنشغلة بتوزيع الابتسامات على الصاعدين .

وألقيت حقيبة يد صغيرة على الكرسي المجاور .. تطلع إلى وجه صاحبها الذي لم يعره اهتماماً بل تركها ومضى قاطعاً ممر الطائرة . رآه يلتفت يمنة ويسرة ثم ما لبث أن عاد متأففاً . وتناول الحقيبة ودسها تحت الكرسي وجلس وهو يردد .

-مرحبا ياجار

نظر إليه وشفتاه تتمتم (أهلاً) التي ضاعت في حروفها في زحمة الصوت .

ـ طيارة قد البلد ما فيهاش وجه يسبح الله أبتسم وقد أدرك سبب تجوال الشاب في الطائرة .. وتمتم في سره لا اله إلا الله ثم حدّق في وجه المضيفة واستغرب من هذا الجار الأعمى الذي لا يرى هذا الوجه الجميل الذي أبدع الله خلقه . وهذا القوام المنتصب كرمح يدمي القلوب .. ونسي نفسه وعيناه تغوصان في جسد المضيفة تجردها من ثيابها . وعلت شفتيه رجفة خفيفة وصحا من غفلته على صوت جاره يقول .

ـ محسوبك عمر رمزي . من نابلس .. وحضرتك تصافحت يداهما وهو يردد

ـ صالح أبو وردة .. من طوباس من قضاء نابلس

واهتزت اليدان بحرارة اكثر وكلمات أهلا وسهلاً وتشرفنا يا بلديات تتداخل في بعضها البعض .

ـ لوين السفرة على خير ؟

ـ أسبانيا

ابتسم عمر وهو يرد

ـ أسبانيا مرة واحدة .. زيي زيك يا عم

وسأله صالح

-هل أنت حقاً ذاهب إلى أسبانيا؟

ورد عمر باسماً

ـ بدي أجيب العلم من ذيله . هيك بيحلم أبي نظر إلى صالح لافتاً انتباهه إلى المضيفة .

-شوف ها المقصوفة الرقبة ما أحلاها

ابتسم صالح

-هذا وجه يسبح الله .. إلا يعجبك؟

ـ يعجبني اكثر لما يسبح الله معي جمعاً التسبيح الجماعي ثوابه أكبر مضاعف . وأغلق باب الطائرة وتحركت المضيفة لتتفقد أحزمة الركاب . كان عمر قد ساعد صالح على ربط حزامه ولكنه ترك حزام مقعده متهدلاً . وعندما اقتربت المضيفة لتتفقد أحزمة الركاب طلبت منه أن يربط الحزام تصنع البلاهة وأخذ يحاول جمع طرفي الحزام بطريقة مضحكة . سألها .

-كيف هالتكنولوجيا هذي. مابنعرفهاش.

ومدت يدها تساعده . كان شعرها يسدل على كتفيه وأنفاسها تحرق خديه ويديها تقتربان من سرته كأنهما قطعة جمر متقدة .

كان عرق صالح يتصبب عن بعد بينما كان عمر يردد

شكراً يا أمورة . والله بتستاهلي بوسة

ابتسمت المضيفة مبتعدة وتلفت عمر نحو صالح قائلاً

ـ مش لو ها لأمورة قاعدة جنبي بدال حضرتك .

كان صالح مندهشاً من تصرفات عمر مستغرباً هذه الجرأة .

لقد غمره العرق لمجرد اقترابها منه . وهذا الشاب إلى جانبه تكاد تحتضنه وتختلط أنفاسها بأنفاسه دون أن ترتجف له جفن . خرجت من فم صالح كلمة (عفريت) تعليقاً على تصرفات عمر وسأله .

-وين تعلمت هالعفرتة.

ورد عمر ضاحكاً

-في الدكان ..

فسأل صالح مستغرباً

-الدكان .. أية دكان؟

-دكان أبي

واتسعت عينا صالح وهو يحدق في وجه عمر . كانت الطائرة قد بدأت تتحرك وتصلب جسده وهو يتخيل نفسه في الجو . نظر من الشباك . وتذكر قول عمر (دكانة أبى) وسأل نفسه هل هنالك دكاكين في نابلس لتعليم العفرتة . وقلة الحيا تراجع عن تعبير قلة الحيا وسماها الشقاوة ورغم أن الطائرة كانت تنهب الأرض نهباً وهي تحاول القفز إلى السماء إلا أن سؤال صالح لم ينتظر فقفز من بين شفتيه .

ـ هل أبوك هو الذي علمك العفرتة .. والشقاوة .

ورد عمر دون أن يلتفت إلى صالح

ـ قلت لك في الدكان . أبي عنده دكان نوفوتيه وملابس حريمي . وزبائنه كلهم نسوان الله يعزك ؟أمسك صالح ذراعي المقعد . كانت الطائرة قد ودعت أرض المطار وأبتعد ظهره عن ظهر المقعد فثنى جذعه حتى يظل ملاصقاً له . وكتم أنفاسه لحظة ثم عاد وفتح فاه جامعاً اكبر كمية من الهواء . شعر بالعرق يتصبب من جديد . وغزا قلبه نوع من الخوف وعيناه تنظران إلى الأرض المبتعدة والبيوت التي أخذت تصعد شيئاً فشيئاً وعن بعد كانت القدس المحتلة وضواحيها ترتسم أمامه كلوحة عزيزة خطفت من ناظريه . ورغم ارتباكه سأل عمر

ـ هل تمر الطائرة فوق الأرض المحتلة ؟

ضحك عمر وقال

ـ ليس قبل التحرير . سنوفر مسافة طويلة على الطائرة عندما نحررها . شعر مصلح بنعاس شديد يغزو مقلتيه. ولكن لسانه كان يجرش سلسلة من الحروف المتراصة التي خرجت من تثاؤبه .

ـ عند عودتنا من أسبانيا سنختصر الطريق ..

وستكون فلسطين محررة . بأذن الله .

وعندما فتح عينيه بعد إغفاءة طويلة . كانت الطائرة لا تزال في الجو وجد المقعد المجاور له خالياً . نظر إلى اسفل المقعد . وجد حقيبة عمر لا تزال مكانها . تلفت إلى الخلف . كان بعض الركاب يتحركون في الممر . لمح كتف المضيفة عند ستارة الباب يتحرك إلى الخلف وهي تستغرق في ضحكة طويلة . اختفت كلياً وهي تلقي بجسدها وراء الستارة تمتم في سره (العفريت) وأطل عمر من خلف الستارة وفي يده كأس مليئة بالشراب، اقترب منه والمضيفة تتبعه

-صح النوم

-قالها عمر، وصالح لا يزال مشدوهاً وغارقاً في تخيلاته استطرد عمر .

ـ لقد نمت أكثر من ساعة ونصف، الركاب جميعهم تناولوا الغذاء إلا أنت هل تريد أن تأكل ؟

أحس صالح فجأة بالجوع . ولم يكن يدري أن في الطائرة وجبات غذاء .

-وهل هناك طعام في الطائرة؟

-طعباً

والتفت عمر إلى المضيفة قائلاً

ـ بسرعة يا حبيبتي . أسعفي هذا الفلاح المفجوع ضحكت وهي تعبر الممر بسرعة . وجلس عمر إلى جانب صالح يردد

ـ وجدتك غرقاناً في النوم فطلبت منها تأخير وجبتك حتى ترتاح . اشكرني يا عم.

-شكراً.

قالها صالح بطريقة لا إرادية وهو لا يزال مشدوهاً بالطريقة التي يتصرف بها هذا الشاب الذي لا يزيد عنا سناً . أنه لا يستطيع أن يتصرف مثله لا يمكنه ذلك حتى لو أراد. وبعد دقائق جاءت المضيفة وهي تحمل طبق الطعام . امتدت يد عمر فثبتت طاولة صغيرة أمام صالح وضعت عليها المضيفة طبق الطعام وعمر يردد

ـ أتغذى يا عم وادعيلي

حدق صالح في الطبق . كان وجبة كاملة يضم دجاجاً وخضاراً وجبنة وفواكه وقطعة حلوى وكل ما تتطلبه الوجبة الحقيقية . هذه أول مرة يرى فيها مثل هذا الطبق المثالي . التفت إلى عمر وسأله .

ـ هل سافرت بالطائرة قبل هذه المرّة ؟

ضحك عمر وقال

ـ سافرت مرّة واحدة . إلى مكة المكرمة . ذهبت للحج . ألقى صالح بالملعقة من يده وهو يحدق في وجه عمر

-الحج. أنت تحج ؟

أجابة عمر دون اكتراث

-أيوه

-مش معقول

-ليش ؟

عاد صالح بالملعقة ويحدق بالطبق متردداً من أين يبدأ الأكل وهو يردد

-تصرفاتك

-مالها؟

-تصرفات واحد ما عنده دين. مش حاج

ضحك عمر وشف من الكأس الذي في يده بطريقة غريبة قائلاً

-حاج ويسكي يعني

وقبل أن يبلع صالح لقمته كان لسانه يردد

-قال حاج. قال ..

وأسرع مضغ لقمته ليستعد للرد على جواب عمر . ولكن هذا لم يقل شيئاً إنما أخذ يرشف شرابه بنوع من الصبابة الغريبة التي لا يعرفها صالح . التفت فإذا بالمضيفة

ـ تقف إلى جوار عمر تناوله كأساً جديداً وتستلم منه كأسه الفارغ .

سأله.

-ما هذا الذي تشربه؟

-ويسكي

-خمرة يعني؟

-ويسكي يعني خمرة ممتازة

-مش حرام

ـ الجنة الموعودة ملأى بأنهار من خمر وعسل مصفى . يعني ويسكي مع شوية ملبس . حامض حلو يعني .

ولم يجد صالح ما يقوله لمقارعة هذا الولد العاق . التفت إلى طبقه وأخذ يلتهمه بسرعة هارباً من النقاش مع عمر طامعاً أن يعود ليغرق في النوم من جديد .

ولن عمر قاطع محاولة نومه قائلاً- إنها أول مرة تركب فيها طائرة .. أليس كذلك ؟

-صحيح

ضحك عمر وهو يرشف كأسه بالطريقة الغريبة التي ترسل صوتاً جارحاً

- الخروج من الحمام ليس مثل الدخول فيه يا عم .

-ماذا تعني ؟

- أعني أن هبوط الطائرة ليس مثل إقلاعها .

أرتجف قلب صالح وشعر بالغثيان وكاد الطعام الذي ازدرده يقفز فجأة إلى حلقه .

-ماذا تعني ؟

- اعني أن إقلاع الطائرة مثل دخولك المدرسة أما هبوطها فانه مثل حصولك على الشهادة .

البعض يحصل على معدل خمسين بالمئة . والبعض الآخر يحصل على مئة بالمئة والبعض يرسب بالصفر . أن معظم حوادث الطيران تحصل عند الهبوط وليس عند الإقلاع .

اسودت الطائرة في وجه صالح . عالجه عمر قائلاً :

- لا تخشى يا جاري العزيز . الذي يحصل معك سيحصل معي . تصرف على هذا الأساس فوض أمرك إلى الله . إلا تؤمن بالله يا صالح ؟

-لا إله ألا الله

- إذن ستصل بالسلامة . تأكد . هل تعرف أحداً في أسبانيا .

- لي صديق بلديات هناك يدرس الطب . وقد أبرقت له عن موعد وصول طائرتنا .

غزا الفرح وجه عمر وهو يردد

- ممتاز . يعني إننا سنجد في انتظارنا من سيسهل أمورنا لا تنسى أن الغريب أعمى .

هز صالح رأسه وهو يتمتم

- أنت أعمى .. أنت أعمى . كيف يكون البصير إذن ؟ إنها أول مرة أرى فيها من يدعي العمى وله خمسة عيون مبحلقة .

الجزء الثامن

(8)

ـ أنت الذي سيقود الدورية .

وامتدت يد مسؤول العمليات نحو عمر يدعوه للجلوس للتفاهم على التفاصيل .

حدق عمر بالخارطة المنشورة على الطاولة والتي يتموج فيها خط ازرق يمثل نهر الأردن . كانت عشرات الأسهم الخضراء والحمراء ومجموعة الدوائر والمربعات تغزو وجه الخريطة . تذكر النهر والعبور ومصلح فسال

ـ أنا أقود الدورية .. لماذا ؟ ومصلح ؟

ـ انه يصر على الذهاب في الدورية كأحد أفرادها لا ادري لماذا هذا الإصرار . انه شاب محير .

قال لي انك تعرف السبب . وأكد أن وجوده في الدورية مهم جداً . ولكنه أصر على أن هذه الأهمية تنعدم إذا اصبح هو قائد الدورية . وأكد انك تعرف السبب أيضا . وأكد كذلك انك أنت أو هشام تستطيعان قيادة الدورية بنجاح .

ابتسم هشام وجلس مقابلاً مسؤول العمليات ورأسه يهتز متذكراً المسلسل الطويل . وشرد ذهنه لحظات قطعها صوت مسؤول العمليات سائلاً :

ـ هل تعرف مصلح من زمان . وهل حقاً تعرف السبب الحقيقي وراء رفضه تحمل مسؤولية قيادة الدورية . عدل عمر جلسته واقترب رأسه من مسؤول العمليات وقد استعد لشرح طويل يقطع على المسؤول أي حبل للأفكار الخاطئة التي قد يكونها عن مصلح . قال عمر

ـ لقد عرفت مصلح منذ أربع سنوات . التقيت به أول مرة عام 1965 في قلب طائرة في مطار قلنديا ذهبنا معاً للدراسة في أسبانيا . ذهب ليدرس الطب وأنا لأدرس الهندسة في البداية كان يمثل لي صورة الفلاح الساذج الطيب القلب . المخلص العفيف . الذي كنا نسميه في أوساط الكلية (البسة بتاكل عشاه) كان كما هو الآن . هادئا . رزيناً مهتماً بدراسته إلى ابعد الحدود . عازفاً على كل المناكفات السياسية التي كان الطلاب يعيشونها . حتى اتحاد طلبة فلسطين لم يكن يهتم بعضويته . كان العلم وتحصيله .. والشهادة هي كل ما يفكر به . أما الأشياء الأخرى فكلها تفاصيل لا تهمه بشيء . ويوم حصل العدوان الصهيوني على قرية السموع حدث انقلاب كبير في حياته . لقد كان الحادث مؤثراً على كل الطلاب وعبرت التكتلات التنظيمية والحزبية عن مواقفها عبر البيانات والخطابات .

ولكن تأثير الحادث على مصلح كان الأكثر وضوحاً . هذا الشاب الهادئ الذي يفترش الكتاب ويلتحفه ينقلب فجأة إلى قمة النشاط السياسي . وقمة الانفعال والإبداع في الاتصالات . هو الذي تحرك على رأس مجموعات إلى السفارات العربية والأجنبية محتجاً ومعبراً عن طبيعة المواقف التي يجب أن تتخذ من هذا العدوان . لأول مرة سمعناه يتحدث عن العمل الفدائي وعن حرب الشعب وعن طريق التحرير وبدأت هويته السياسية التي اتضحت فجأة تشير انه كان على إطلاع دائم ومواظب على الأفكار المطروحة . اتخذ موقف الداعي لحرب العصابات والمحرض لحرب الشعب كأسلوب حتمي وحيد للتحرير . كرس يومياً شعاره المقدس فلسطين طريق الوحدة . كنت اختلف معه يومها . كنا نحلم بالدور الكبير للجيوش العربية التقدمية . وللوحدة العربية . كنا نعتبر

أن وجود إسرائيل هو نتيجة التجزئة والتشتت والضعف العربي .. وكان مصلح يؤكد أن إسرائيل راس الرمح الإمبريالي هي سبب أساسي لتكريس التجزئة والتخلف . وقد عرفنا السبب الذي أطلق هذا المخزون الكامن من الطاقة التي كان يتمتع بها مصلح ورغم مظهره الهادئ . أنها مخزون ما يزيد عن عشرة سنوات من اليتم . ففي عام 1955 وعندما اعتدى الصهاينة على بلدة قلقيلية استشهد والده . كان يومها في العاشرة وكل ما استطاع أن يعبر به عن شعوره يومها كان البكاء والكبت .

أما بعد غزو السموع فقد تأججت فيه شعلة وطنية بصورة خيّل إلينا أن والده استشهد يومها . وان فلسطين تتعرض للغزو لأول مرة . أصبح بعدها ابرز أعضاء الهيئة الإدارية في اتحاد طلاب فلسطين . ورغم مواظبته على الدراسة واستمراره في الحصول على نتائج باهرة . في الأيام الأخيرة سكنا معاً في نفس الشقة ورغم خلافاتنا السياسية، فقد كان من النوع الذي تحبه وتحترمه مهما اختلفت معه . ثم جاء الحدث الأكبر الذي وحد وجهة نظرنا السياسية بل الحق يقال أنني أنا الذي اكتشفت أن ما كان يطرحه مصلح هو الصحيح . لقد جاءت حزيران بكل ما حملته من ذل وهوان للأمة العربية . وكل ما كشفته من زيف الا دعاءات وبطلان العنجهيات والعنتريات التي كانت الأنظمة تتبجح بها . كم فرحنا في البداية ونحن نستمع لأخبار الانتصارات التي تبين أنها كلها وهمية ثم حصلت النكبة والهزيمة التي رغم وجودنا في أسبانيا، البلد الذي لا تجد في شعبه من يشمت بنا كما هي الحال في دول أوروبا الأخرى . إلا أن العطف علينا كان قاسياً . ويومها قرر مصلح أن يترك أسبانيا . كانت الثورة الفلسطينية قد فتحت الباب للانخراط في دورة تدريبية عسكرية في الجزائر . يومها جمع مصلح الطلاب في مدريد وشرح لهم أهمية الالتحاق بالدورة لممارسة الكفاح المسلح الثوري ضد المعدو الصهيوني . الكثيرون سخروا . وجماعتنا اخذوا يهزأون من حربه الشعبية وكانوا يرددون . أن هنالك في الوطن اكثر من مائة مليون عربي وليسوا بحاجة لنا هناك . وان بقاؤنا هنا من اجل الدعاية وشرح القضية يفيد أكثر من العودة إلى الوطن . ولكن مصلح رفض هذا المنطق قائلاً ـ (سنذهب نحن للقتال وابقوا انتم للدعاية) واخذ مصلح يجمع النقود من الطلبة لتأمين تذاكر السفر إلى الجزائر لأكبر عدد ممكن . وذهبت معه إلى الجزائر للالتحاق بالدورة العسكرية هناك . شعرت يومها أن الكلام لا يجدي والأفكار لا تعني شيئاً إذا لم تتجسد مادياً عبر ممارسات الإنسان الذي يعتنقها . وان الرصاص وحده هو طريق الخلاص . ومعا جئنا إلى الأغوار . ومعاً دخلنا الأرض المحتلة في أول دورية لنا . يومها استشهد مصلح . حقيقة مات . لولا شعره لما كان الآن موجوداً غرق وجرفه التيار اكثر من خمسين متراً لقد بكيت وأنا على الضفة الأخرى . ولو لم يكن عيسى العوام معنا. لو تأخرت عملية إنقاذه لمات حتما ومن يومها تكونت لديه عقدة من النهر واعتقد أن هذا هو السبب في رفضه قيادة الدورية . لقد دخل الأرض المحتلة عدة مرات ثلاث منها كنت معه . وفي كل مرة كان يعبر النهر بعد عرس طويل من الصرخات والاستغاثات انه من أشجع المقاتلين ولكنه يفقد السيطرة على أعصابه أمام النهر انه يعتقد أن العنصر يمكن أن يصرخ ويستنجد أما قائد الدورية فلا يجوز له ذلك، فان ضعف على ضفة النهر وانهار واستغاث فعلى دوريته الفوضى

سال مسؤول العمليات عمر

ـ هل تعتقد أن الخوف من النهر هو السبب ؟

هز عمر رأسه موافقاً . فاستطرد مسؤول العمليات قائلاً

ـ ولكننا الآن في الخريف والنهر في أضعف حالاته فمم الخوف إذن ؟ لا بد أن هنالك أسباب أخرى . ليس هذا مهما الآن . ما دمتما متفاهمان والأمور على ما يرام . وأشار مسؤول العمليات إلى الخارطة المنفردة على الطاولة ومد يده نحو دائرة حمراء وهو يردد

ـ هنا سيكون مجال نشاط الدورية .. طوباس

-طوباس ؟

خطف عمر حروفها مستغرباً وبطريقة جعلت مسؤول العمليات يردد .

ـ طوباس . ايوه طوباس ماذا في الأمر ؟

هز عمر رأسه وتراجع إلى الخلف وجلس وهو يتمتم

ـ الآن عرفت السبب

استرخى مسؤول العمليات في مقعده وكان يستعد للاستما ع إلى قصة جديدة ..

كان عمر قد سرح بعيداً مستعيداً تلك الأيام الأولى التي أشترك فيها مصلح في الكفا ح المسلح . وكانت دوريتهم الأولى برفقة مازن أبو غزالة . تذكر التفاصيل بسرعة ووجد أن من واجبه إطلاع مسؤول العمليات على هذه التفاصيل حتى يكون على إطلاع يقين . قال

ـ لا بد من العودة إلى عام 1967 ولأول دورية شاركت فيها عبور النهر مع مصلح وبقيادة مازن . عبرنا النهر بعد تجاوز الصعوبات التي أحدثها مصلح . واستقرت دوريته في الجبال بين الفارعة وطوباس كانت نظراتنا النافذة من بين أغصان الزيتون تطل على الخضرة المتموجة والمياه المنسابة رقراقة في الوديان . كنا نشعر بالعطش والجوع وكان لابد من طريقة للحصول على احتياجاتنا من الأهالي . لم يكن العدو الصهيوني قد احكم حلقاته في المناطق، ولذلك كان من السهل اتصال أفراد الدورية بالسكان . وكان هؤلاء على استعداد لتقديم أية مساعدة . ولقد اقدم عدد كبير من الشباب الذين دخلوا الأرض المحتلة في تلك الفترة على الاتصال بذويهم والالتحاق بعائلاتهم لتحقيق بناء تنظيم في الداخل .

كان مازن لا يعرف عن الشباب إلا أسمائهم الحركية . وكان الجميع كذلك . مصلح كان حالة خاصة النسبة لي . وأنا حالة شاذة بالنسبة للجميع . لهجتي النابلسية كشفتني منذ البداية .

وقد وجد مازن أن نابلس هي اقرب المواقع إلينا طلب مني أن أتدبر وسيلة أستطيع فيها الوصول إلى نابلس للتعرف على الوضع ولإحضار بعض الحاجيات الضرورية وعندما أخبرته أن طوباس اقرب لنا من نابلس، وان مصلح من طوباس انفرجت أساريره كمن حصل على كنز كبير .

ـ الحمد له انحلت العقدة الأولى . انده لي مصلح وجاء مصلح معي إلى حيث كان مازن وحيداً تحت شجرة تين كبيرة . وقف مازن والبسمة تقفز من كل أرجاء وجهه .

-أهلا مصلح. الحمد لله انت معنا

-خير إن شاء الله

عالجه مازن

-أنت من طوباس. الحمد لله

وكأن صاعقة هبطت على رأس مصلح . أصفر وجهه وعيناه ورد بطريقة عصبية وهو ينظر إلي بحقد ولم أعهده في عينيه الصافيتين الوديعتين .

-ومن قال لك ذلك ؟

حدّق مازن في وجه مصلح . ثم نظر مستغرباً ومستفسراً واستطرد مصلح

ـ ما الفرق بين أن أكون من طوباس أو من غير طوباس أنا من فلسطين وهذا يكفي .

حاول مازن أن يهدئ من غضب مصلح وهو يردد

ـ بالعكس . كونك من طوباس يعطي أهمية خاصة لك ولدوريتنا . وسيكون من أهم الأسباب نجاحنا في مهمتنا .

-لا أفهم ما تعنيه

-هل يمكن الاتصال باهلك في طوباس ؟

-لا .. لا

قالها مصلح بعصبية اشد من السابق

شده مازن من يده برفق وجلس وهو يردد .. اجلس .. اجلس يا أخي مصلح. لا تتحكم فينا بصفتنا ضيوف عندك . صحيح الضيف أسير المحلي . ولكن إلى حد المحافظة على كرامته .

هدأ مصلح قليلاً بعد جلوسه . وهدأ مازن طويلاً ومرت فترة من الصمت والنظرات المتبادلة .

أخذ مازن يرسم على الأرض بإصبعه أشكالاً وحروفاً ثم يمحوها براحة يده .. ومصلح لا يزال شارداً وأنا ما زلت واجماً لا ادري ما هي الورطة التي سببتها لمصلح وطالت فترة السكون .

ومازن شارد الفكر منسجماً مع خربشاته على الأرض وأنا لا أجد كلمة افتح بها بوابة الحديث .

ومصلح شارد النظر بين وجهي المضطرب ووجه مازن الهادئ الباسم .

فجأة قال

ـ أخي مازن . أنا آس لردة الفعل التي بدرت عني ولكنني سأوضح لك السبب وأرجو أن يكون مقنعاً . وإلا فأنا طوع أمرك في كل ما تطلبه . فأنت قائد الدورية .

ابتسم مازن بهدوء . ورفع رأسه وعيناه تجتاحان وجه مصلح . وأنا كالأبله أحدق في مشهد مسرحي مليء بالمفاجآت .

ـ أنا من طوباس . صحيح .

هكذا بدأ مصلح حديثه وهو يضع يده على كتفي مستطرداً

ـ وعمر هو الوحيد من أفراد الدورية الذي كان يعرف هذه الحقيقة . وأنت الآن يا أخ مازن أصبحت تعرفها أيضا أن لي ظروفي الخاصة التي يعرف عمر جزءاً منها بصفته زميلي في الدراسة وشريكي في السكن .

لقد جئنا من أسبانيا عن إيمان مطلق بأهمية الدور الذي ستقوم به وإذا كانت ظروفي الذاتية قد تمنع غيري من الانخراط العملي في الكفاح المسلّح إلا أنها لم تقف لحظة واحدة عقبة أمام قراري . وأخي عمر يعرف ذلك أيضا . ولكن نوعاً من الحساسية المرهفة التي لا أزال احملها تجاه والدتي هي التي لا تزال تشكل عقبة أمام حضوري الكامل أنت لا تعرف أمي يا أخ مازن وعمر يعرفها وان كان قد سمع مني الكثير عنها . أنني لم أرها منذ أكثر من سنتين . وهي تعتقد انني لا أزال في أسبانيا أدرس الطب . أمي تحلم ان تكون أم الدكتور صالح أبو وردة وليس أم الفدائي مصلح . أمي وطنية وتحب فلسطين وتحب الفدائيين أنا متأكد من ذلك . لقد كان زوجها أبي فدائياً . ولكنني أحتم أن أمي ليست مؤهلة لأن تكتشف ابنها الذي عملت في الأرض .

وجرحت راحتيها وقدميها سنوات طويلة من أجل تعليمه قد أصبح فدائياً . وقد يموت في أية لحظة . لقد أستشهد أبي يوم هجمة الصهاينة على قلقيلية . وخلف لها ولدين وبنت . وكالدجاجة الخائفة من تقلبات الريح العاتية احتضنتنا . أطفالها الثلاثة . أنا وأختي وأخي . كنت يومها في العاشرة وسلمى في الرابعة ويحيى ولد يوم أستشهد والدي فحمل أسمه . فكانت أمي تدفعني للدراسة بشراهة . وتمنعني من مساعدتها في العمل خشية

أن يؤثر ذلك على مستوى دراستي . وعبرت السنوات سريعة وأنا اجتاز الصفوف دون إبطاء . وكانت أمي تزداد إصراراً على أن أصبح دكتوراً . كان والدي قد خلف لها إلى جانب الأطفال قطعة أرض واسعة وبيت وقيراطين في المطحنة . كان الدخل كافياً لأن تعيش مستورة . ولكن أمي كانت تحدق في الأفق البعيد تدخر وتدخر وفي كل مناسبة كانت تشجعني على الدراسة بجد حتى أصبح دكتوراً . كانت تقول

عايزك يا حبيبي مثل أبن حسين عوض تجيب معدل يرقع الرأس وتخش كلية الطب في مصر .

ولكنني لم أحصل على معدل يدخلني كلية الطب

قالت لي

ـ لا تهتم . لا تعيد التوجيهي ولا تسمم بدنك روح على أسبانيا مثل ابن أبو خالد عواد . بلاد بره احسن وشهادتها اكبر .

ولكن الفرق بيننا وبين أبو خالد عواد، الملاّك الكبير كالفرق بين الأرض والسماء على ميزانيتها وأخبرتني انها مستعدة كل شيء . وانها قادرة على تعليمي حتى النهاية ولو اقتضى الأمر ان تبيع الأرض والمطحنة والدار وتزوج سلمى .

كانت سلمى قد بلغت الرابعة عشرة ويحيى قد بلغ العاشرة . وأنا رب العائلة واملها . ذهبت إلى أسبانيا ونجحت في سنة اللغة . ونجحت في السنة الأولى في الجامعة بتفوق ولكن العدو نجح في احتلال كل فلسطين فأسقطت التعليم من حسابي وقررت الالتحاق بقوات العاصفة . ومنذ غادرت حتى الآن وأنا متمسك بالحفاظ على مشاعر والدتي . لقد بعثت لها رسائل أخبرها عن أحوالي وأحوال الدراسة تماماً كأني ما زلت في أسبانيا لقد رتبت الموضوع مع خالد عواد وسيرسل لي رسائل أمي على عنوان في عمّان فأرد عليها وكأنني في أسبانيا وأرسل الرسالة ليرسلها بدوره للأرض المحتلة لقد أرسلت حتى الآن ثلاثة وتسلمت رسالة واحدة وسأستمر على هذه الطريقة حتى يقضي الله أمره .هذه هي قصتي . وقصة أمي .. ولكنني واثق من أن أي اتصال يقوم به أي شاب في الدورية مع أمي سيؤمن لنا كل ما نحتاجه . بل أن في أرضنا القريبة من البلدة مكان للاختباء . وأرض ملأى بالأشجار ومغارة واسعة وبئر ماء جمع . والطعام ما أسهل تأمينه عبر الاتصال بأمي انا واثق من ذلك . هذا إذا لم أكن أنا الذي سيقوم الاتصال وأمي قد تنهار إذا اكتشفت أنني حطمت فجأة كل أمنياتها . وقد تفقد أعصابها مما قد يؤدي إلى كشف الدورية وليس امدادها ومساعدتها .

نظر عمر إلى مسؤول العمليات وهو يشدد على حروف كلماته قائلاً :

ـ هذا هو السبب الحقيقي . نفس السبب الذي منعه من أن يتصل بذويه سابقاً . وسأل مسؤول العمليات

ـ وكيف تصرف في المرة الأولى هل ذهبتم إلى طوباس . هل حصلتم على حاجتكم من المؤن .

ـ طبعاً . ومن أم مصلح بالذات . أنها كانت تقيم بيننا . تخبز وتطبخ غير عابئة بشيء

وسأل مدير العمليات مندهشاً

ـ كيف ؟ ومصلح ؟ ماذا فعل ؟ ألم تره ؟

ـ كان يختبئ طوال النهار تحت البطانية في عمق المغارة حتى لا تراه أمه . مسكين كان يعاني ولكنه كان أكثرنا بهجة وفرحاً في الليل .

أشعل مسؤول العمليات سيجارة نفث منها نفساً عميقاً

ـ وهل تعتقد أمه حقيقة أنه لا يزال في أسبانيا .. أبتسم عمر وقال

- أجل. لقد تسلم منها رسالة قبل استدعائنا بأيام لقد رتب الموضوع جيداً حتى لا ينكشف إلا بالنصر أو الشهادة.

الجزء التاسع

(9)

كان مقر قيادة القطا ع الأوسط مكتظاً على غير عادة . المقاتلون القدامى وآمرا القواعد يلتفون وتنهمر القبل على الوجنات من كل جانب . أحد الصحفيين الأجانب كان يقف متكئاً على طرف شباك يتبادل أطراف الحديث مع مرافقه من الأعلام الخارجي، وكان يركز نظره على هذه الظاهرة التي يراها تغرق الصالون بالأحضان والقبل سأل مرافقه .

ـ يخيل لي أن حرارة هذا اللقاء إنما هي تعبير عن محاولة قهر الزمن الذي فرّق هؤلاء الشباب عن بعضهم البعض .

ابتسم المرافق وقال.

ـ الزمن بالنسبة لهؤلاء الشباب هو لحظة الفراق أما المدة فلا تعني شيئاً كثيراً . فهم عندما يلتقون يتأكدون من أنهم لا يزالون أحياء فيعبّرون عن ذلك بحرارة اللقاء .

وعندما يفترقون يعبّرون عن حرارة الوداع بنفس الدرجة لأنهم لا يدرون إلى متى؟ ولكن هل سيلتقون مرّة ثانية أم لا. هذا هو القانون الأول في العمل الفدائي .

كان اللقاء أكثر حرارة قد سيطر على طرف آخر في الصالون . وأرتفع أكثر من أطراف أخرى يردد

-عيسى .. عيسى العوام ..

مصلح يحتضن عيسى ثم يبعد صدره قليلاً ليحدق في عينيه ثم يضمه من جديد وهو يتمتم .

ـ لقد حرقت أعصابي خفت إلا تحضر

وابتسم عيسى وهو يحدق في عيني مصلح

ـ ولو . وهل يهون علي أن أتركك خصوصاً وأنت القائد

ـ لست القائد .. عمر هو الذي سيقود الدورية

سأل عيسى مندهشاً ..

ـ لماذا عمر .. أبسبب النهر ؟ .

-جزئياً

وفتح غرفة العمليات وظهر عمر ينادي

-مصلح.

ثم لمح عيسى إلى جوار مصلح فاندفع بين هتافات الشباب مرحباً بحرارة شديدة .

ـ أهلاً بالمنقذ .. الله جابك . هيا بنا إلى الداخل مسؤول العمليات يريدنا .

واندفع الثلاثة إلى مكتب غرفة عمليات القطاع الوسط . كان وجه مصلح قد بدا عليه الارتياح لأول مرة منذ أن غادر القطاع الجنوبي . نسي كل أحلامه المزعجة وتخيلاته المرعبة . أخذ يستعرض جدران الغرفة . الستائر تكسوها من كل جانب . ستارة واحدة كانت مفتوحة جزئياً تكشف عن جزء من خارطة . تذكر على الفور الخارطة التي فردها له مسؤول العمليات في عمّان . وتذكر طوباس والنهر، للحظة طغى عليها صوت مسؤول العمليات .

-أهلا عيسى متى وصلت، لقد تأخرت

هز عيسى يد مسؤول العمليات بحرارة وهو يردد

ـ كنت في إجازة، بلغوني متأخراً . الحمد لله أنني وصلت في الوقت الناسب .

ضحكك مسؤول العمليات وقال

ـ طبعاً يا عم .. الإجازات كثيرة في لبنان، وبيروت أم الدنيا .

ـ يا حسرة .. (قال عيسى) .. لقد كنت في إجازة زواج في اليوم الثالث من عرسي . بلغوني بضرورة الحضور إليكم وارتفعت الأصوات .

-مبروك .. مبروك

وعادت الأحضان والقبل تعبر عن التهاني بين جدران غرفة العمليات الصغيرة . أشار مسؤول العمليات نحو شاب كان يجلس إلى جانبه صامتاً وقال :

ـ الأخ سعد . آمر قاعدة الشهيد مازن سيكون معكم في الدورية مع بعض شباب القاعدة .

سلم مصلح على سعد وهو يردد

-فرصة سعيدة ..

واستطرد مسؤول العمليات

ـ الأخ مصلح مسؤول استطلاع القطاع الجنوبي سيكون نائب لعمر في الدورية . وطبعاً أنت تعرف الشيخ عيسى العوام .

سلم سعد على عيسى بحرارة وهو يردد

ـ لم نتقابل، ولكنه أشهر من نهر الأردن . فرصة سعيدة ومبروك العروس .

-بارك الله فيك ..

التفت مسؤول العمليات إلى الخارطة

ـ والآن هيا إلى العمل .. أن مجال نشاط الدورية سيكون في هذه المنطقة .

وامتدت يده تشير إلى طوباس وترسم دائرة واسعة ثم تتجه نحو المالح لتعود تخترق النهر إلى الضفة الشرقية .

ـ ان عمر يعرف المهمة كاملة . ويعرف طبيعتها وكذلك مصلح المهم هو التنفيذ في الوقت المحدد دون تأخير .

ـ التفاصيل يجب أن لا يعرف بقية الشباب عنها إلا في الوقت المناسب . يجب ان يتم العبور هذه الليلة . عليكم حمل أكبر كمية من الألغام المضادة للآليات، وعلى الأقل خمسة قواذف (ب7) إذا استطعتم صنع معركة لمدة نصف ساعة مع تدمير عدد من الآليات انسحبوا فوراً ستكون مهمتكم ناجحة مئة بالمئة .

كان سعد يتابع مسؤول العمليات وهو يفكر في طبيعة هذه المهمة التي تحتاج إلى مسؤول استطلاع القطاع الجنوبي ليكون نائباً لقائدها . أنها مجرد مهمة زرع الغام في العمق مع كمين لآليات العدو . ومثل هذه العملية يرسل عادة لتنفيذها عدداً من شباب القاعدة . فلماذا يذهب لتنفيذها مسؤول استطلاع قطاع .. إلى جانب الأخ عمر كاد يوجه سؤاله إلى مسؤول العمليات ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة .

وخرج الشباب من غرفة العمليات واخترقوا حواجز الأحضان والقبلات التي كانت تسيطر على أرجاء الصالون . واندسوا في سيارة فولسواجن صغيرة أخذت تنحدر في اتجاه الأغوار .

كان سعد يقود السيارة ببطء وبحرص شديدين ويستمع لسلسلة الأحاديث التي لا تنقطع عن ذكريات الكرامة والكريمة ومازن وطوباس التي اخذ عمر ومصلح وعيسى يتسابقون في تذكرها .. وتحت منعطفات العارضة أو نهر الأردن يبدو أمام مصلح الذي تأوه فجأة وقال

ـ عيسى العوام يعمل في جنوب لبنان، وأنا في الغطاء الأوسط . أي قدر هذا .

وتحدث سعد لأول مرة معلقاً

-ألا تحب القطاع الأوسط يا أخ مصلح ؟

-موت. بحبه موت.

وعلق عيسى

ـ ولكنني معك .. وسأبقى معاك، معاك والزمن طويل وضحك عمر بسخرية .

ـ معاك .. معاك .. صدقه يا مصلح . في أول لحظة يتذكر فيها أم المؤمنين سيبيعك .

ـ هل حقاً تزوجت منذ أيام ؟ (سأل مصلح)

ـ أجل ولا أزال سخن . عريس طازه .

ـ وسعيدة الحظ من أين .. ؟

-من عين حلوة

ـ يا بختك (قال عمر) الآن صار عندك دين .

عقبال مصلح يعملها ويخلص من ماتيلدا .

ـ من هي ماتيلدا يا مصلح ؟ احكي يا عمر واكشف لنا أوراق هذا السلبود .

ضحك عمر وردد

ـ تحت السواهي دواهي . ماتيلدا هي غادة الأندلس التي يعشقها الشيخ مصلح .

قاطعه عيسى ضاحكاً

-طبعاً .. حب عذري ..

-والله أعلم

قال مصلح محولاً اتجاه الحديث

-وأنت يا عيسى .. هل أحببتها ؟

-من ؟

- التي تزوجتك.

ـ تقصد التي تزوجتها . أنا الذي تزوجتها وليست هي التي تزوجتني . طبعاً أحببتها . حب فلسطيني من قاع الدست علق سعد محاولاً التدخل في الحديث

-حب فلسطيني .. ماذا تعني بذلك ؟

ـ أعني بنت من المخيم . شافتني دحه . وأخوتها الثلاثة فدائيون، وأبوها مجاهد من أيام القسام . وتعمل مدرسة . يعني لو انا ودعت لن تجوع ولن تحتاج . ضحك عمر وهو يضغط على يد مصلح ثم يشير إلى عيسى قائلاً :

ـ لملم يا أخ . حتى كتلة التخلف هذا أصبح من أنصار المرأة العاملة .

الجزء العاشر

(10)

كانت قاعدة الشهيد مازن منتشرة على السفوح المطلة على الكريمة، مجموعة من المخيم المتباعدة والموهة يخترق نصفها السفلي وجه الأرض لتتحول إلى كهوف صناعية. وخلف إحدى الصخور الكبيرة وجدت سيارة الفلوكس ملجأها ومع ترجل الشاب من السيارة.. كان عدد من مقاتلي القاعدة قد أطلوا يرحبون الضيوف. ورغم أن الشمس كانت تتجه نحو الغرب إلا أن أشعتها كانت حارقة. فالغور رغم أنه أكثر بعداً عن الشمس من قمم جبال السلط إلا أنه أكثر حرارة منها. علق عيسى موجهاً حديثه إلى عمر.

-لماذا يا باشمهندس كلما ابتعدنا عن الشمس ترتفع درجة الحرارة وكلما اقتربنا منها تزداد البرودة والهواء المنعش والثلج أحياناً.

كان العرق قد بدأ يغزو بشدة عمر الذي مسح وجهه وعلق ضاحكاً.

-لسبب بسيط هو أن الأرض هي مصدر الحرارة والإيمان وليس الشمس.

ضحك مصلح وهو يوجه حديثه لسعد.

-نحن الآن ضيوفك في قاعدة الشهيد مازن ومن حقك أن تمنع أيه محاولة للافتراء على العلم والطبيعة والأخلاق حتى ولو كانت من الأخ قائد الدورية.

ضحك الأربعة واتجهوا إلى أحد الكهوف الصناعية وأخذ الشباب يقبلون للتسليم على الضيوف.

طلب سعد إحضار الشاي والاتصال بنائبه عبد السلام ليحضر فوراً.

-كم عدد المقاتلين في القاعدة؟ (سأل مصلح)

-حوالي الخمسين. طبعاً مع المجازين

-هل هناك قواعد قريبة؟

-طبعاً. هناك عدة قواعد. إلى الجنوب هنالك قاعدة الفسفوري. انها قريبة من الكرامة وإلى الشمال هنالك عدة قواعد تنتشر من هنا حتى اليرموك. أقرب جار لنا صاحبك فتحي أبو الهيجا. ألم يكن معكم في الصين؟

-أهو قريب من هنا؟

-حوالي عشرة كيلومترات أو أكثر.

قال عمر معلقاً.

-المسافة بين القاعدة والأخرى في القطاع الجنوبي تزيد عن ثلاثين كيلو. هنا يتعانق القطاع الشمالي مع القطاع الأوسط بسهولة.

دخل عبد السلام نائب آمر القاعدة وحيا الضيوف وسلم عليهم وجلس وكلمات الترحيب تنهمر من بين

شفتيه. سأله سعد.

-هل عادت دورية الاستطلاع أمس؟

-المفروض أن يبقوا قرب النهر حتى تصل دورية العمق إليهم، ويتم العبور على أساس آخر ما توصلت إليه دورية الاستطلاع من معلومات. ينتظرون وصول دورية العمق في النقطة (١٣).

-هل جهزت الشباب؟

-كل متطلبات الدورية جاهزة. الألغام، الأسلحة، الطعام لمدة أسبوع.

التفت مصلح نحو عمر وسأله:

-هل نحن بحاجة إلى حمل طعام لمدة أسبوع. أليس بإمكاننا ترتيب موضوع الطعام في الداخل، وحمل أكبر كمية من الألغام؟

وقبل أن يرد عمر، تدارك سعد تأخره في تقديم الضيوف لنائبه فقال:

-الأخ عمر هو قائد الدورية وسنكون جميعاً تحت إمرته، الأخ مصلح هو نائب قائد الدورية. وهو مسؤول الاستطلاع في القطاع الجنوبي، والشيخ عيسى العوام طبعاً سمعت عنه. إنه قاهر نهر الأردن أبداً.

عاد عبد السلام يرحب بالأخوة من جديد وهو يردد:

-إن وجودكم جميعاً على رأس هذه العملية يدل على أهميتها. ولا أدري كيف ستغامرون بالدخول دون تموين. ولكنكم أخبر مني بمهمتكم.

قال سعد

-أنا أيضاً ذاهب مع الدورية وستذهب أنت مع بقية الشباب لتنفيذ ما يطلبه منكم القطاع. بعد عبورنا الليلة عليك الاتصال بغرفة عمليات القطاع الأوسط. ان مسؤول العمليات يريدك غداً قبل الظهر.

وسأل عمر وهو يقف متجهاً نحو باب الخيمة:

-أين الشباب؟ يستحسن أن نقابلهم واحداً واحداً.

-كما تريد (قال سعد)

واتجه إلى عبد السلام مستطرداً

-الشباب الذين اتفقنا أن يعبروا. أحضرهم فوراً إلى الخيمة المجاورة ليحضروا إلى هنا واحدا واحداً وليكن ذلك على التسلسل التالي: عبد الجليل، أبو عمر، الفسفوري، نور الدين، أبو ابراهيم، مجاهد.

-حاضر، وليكن أبو ابراهيم الآن على رأس دورية الاستطلاع، ولا أدري إذا كان بالإمكان أن يحل بلبل أفندي محله.

-بالعكس. إن وجوده على رأس دورية الاستطلاع يعزز من ضرورة دوره مع الدورية. حسناً فعلت بإرساله لمهمة الاستطلاع.

كان مصلح وعمر وعيسى يتابعون النقاش بين سعد ونائبه ولكن مصلح كان الأكثر انتباها خاصة بعد أن سمعهم يرددون أبو ابراهيم. سأل نفسه بسرعة هل يمكن أن يكون هو، ابن عمه، خليل أبو وردة. ولم لا؟ كان أول جواب أنه فدائي وفي الأغوار. فلم لا يكون في هذه القاعدة بالذات؟ تردد في السؤال عن الاسم

الحقيقي لأبي ابراهيم وقرر أن ينتظر حتى النهر.

أخذ الشباب يدخلون إلى الخيمة واحداً واحداً. يقودهم سعد مع المواصفات التي يعرفها عن كل منهم. كان يعدد مجموعة من المواصفات الإيجابية لكل أخ. ولكنه دائماً يحدد أكثر هذه المواصفات ارتباطاً به ليقول في النهاية:

عبد الجليل	ملك حقول الألغام
أبو عمر	ملك الاستطلاع
الفسفوري	ملك الهاون
نور الدين	ملك العبور
بلبل افندي	ملك الناي

ابتسم عمر وهو يستعرض بلبل أفندي. كان يضحك في سره وهو يتذكر منظراً حصل في نابلس قبل سنوات طويلة. كان صوت جميل ينبعث بين أزقة حارة الياسمينية مصاحباً دقات صاحبات النحاس في يده.

-أنا ملك الخروب.. أنا الملك

ولكن الفرسان الذين كانت مهمتهم المحافظة على قداسة الملكية حطموا رأس ملك الخروب وداسوا على رقبته وسكبوا الخروب على وجهه. حدق في وجه بلبل أفندي ملك الناي. كان يرى شبهاً بين وجه بلبل أفندي وبين وجه ملك الخروب.

-هذه ليست قاعدة الشهيد مازن على ما يبدو (قال عمر) ان الاسم الأكثر دقة لها هو قاعدة الملوك. ان الملكية مؤممة في هذه القاعدة.

قال مصلح محاولاً القفز إلى لحظة لقاء ابراهيم عند النهر سائلاً

-أبو ابراهيم الذي تحدثتم أنه سيحضر معنا. أهو ملك أيضاً.. ملك ماذا؟

وبآلية عادية ودون تفكير قال سعد:

-ملك الكتب.

وقبل أن يستمر مصلح في الاستفسار دخل شبل يحمل قاذف بي سفن وقد جهز بالقذيفة. اشمأز مصلح من المنظر، كيف يدخل بهذه الصورة وهذا الاستهتار.

-ما هذا؟

نظر الشبل إلى سعد وكأنما يطلب منه أن يرد على تساؤل مصلح.

قال سعد:

-هذا مجاهد. ملك البي سفن. انه أحسن رامي بي سفن في الأغوار.

-ولكن لماذا يدخل علينا هنا والقاذف مجهز بالقذيفة؟

-لقد اعتاد على ذلك. ان قاذفه لا يفارق القذيفة أبداً.

نظر مصلح إلى الشبل. كانت عيناه تتسعان ببريق صاخب. وكان شعره المتناثر على وجهه يختصر من عمره الصغير بضع سنوات. قال له:

-انزع القذيفة.. حالاً. ولا تضعها في القاذف إلا بأمر.

تجاهل الشبل كلام مصلح ونظر إلى سعد منتظراً رأيه.. قال سعد:

-ألم تسمع ما قاله لك الأخ مصلح؟ انزعها. وخليك منظبط.

تمايل الشبل بدون اكتراث. وتراجع خطوة إلى الوراء وباستهتار شديد مد يده ونزع القذيفة الموجهة إلى صدر مصلح. وابتعد عنه متجهاً نحو باب الخيمة للخروج.

-هذا الشبل خطر (قال مصلح وهو ينظر إلى سعد)

-ولكنه شجاع جداً. وذكي. لقد دخل الأرض المحتلة عدة مرات.

-انه مستهتر جداً. هذا يضر بالدورية والمهمة لا تستحمل مثل هذه المخاطرة ما رأيك يا أخ عمر.

كان عمر وعيسى يراقبان تصرفات الشبل وسعد ومصلح. قال عمر:

-أعتقد أنه شجاع إلى درجة الاستهتار. وهذا ليس غريباً في هذه السن المبكرة. هل حقاً دخل إلى الأرض المحتلة من قبل يا أخ سعد؟

-عدة مرات. انه لا يترك دورية تذهب إلا ويتعلق بها. لقد التقط مرة دورية عائدة كان فيها مع دورية داخلة، أصر علي ترك الدورية والالتحاق بالدورية الداخلة. كان الشبل لا يزال واقفاً خارج باب الخيمة. ناداه سعد قائلاً.

-اسمع يا مجاهد. هذه المرة لن تذهب معنا. ستبقى في القاعدة. انتفض الشبل. وألمت به رجفة كأنما قبض على سلك مكهرب. أخذ ينشج والعرق يتصبب منه دون أن تطفر من عينيه دمعة.

-ل....ي....ش؟

فسقط تساؤله متقطعاً مع النشيج. كان مصلح قد فوجئ بالحالة العصبية التي سيطرت على الشبل واعتبر أنها ليست حالة عادية وليست إيجابية بأي شكل من الأشكال.

فرد على تساؤل الشبل قائلاً.

-لأنك غير منضبط ومستهتر. ولا تهتم بأمن الدورية.

وكعصفور صغير انكمش على نفسه. فتركز التشنج في وجهه وهو يتسائل.

-ك....ي....ف؟

-كدت أن تقتلنا منذ لحظة وأنت تنزع القذيفة باستهتار.

توقف تشنج الشبل فجأة. نظر إلى مصلح وسأله بطلاقة.

-هل تخاف من الموت؟

-طبعاً. خاصة إذا كان بدون ثمن. وعلى يد ولد مستهتر.

عاد التشنج يسيطر على الشبل من جديد وهو يتمتم.

-إذا تر.. ك.. تو.. ني. سأق.. تل.. نف..سي.

قال مصلح

-في ستين داهية.

همس سعد في إذن مصلح.

-حلمك عليه.

-لابد أن تحدث له حالة إحباط حتى يستعيد توازنه. يبدو أنه دلل أكثر من اللازم.

انهمرت الدموع من عيني الشبل. دموع مختلطة بحالة ألم دون تشنج. عيناه تنظران إلى مصلح باستعطاف كعيني محكوم عليه بالموت. ترجوان رحمة السياف. وعميقاً إلى قلب مصلح وصل الرجاء. قال للشبل وهو يضع يده على كتفه بحنان.

-كم عمرك يا مجاهد؟

-أربعة عشر

-لماذا تزيد عمرك؟ عشرة فقط.

-والله العظيم أربعة عشر. مواليد خمسة وخمسين.

كان عمري سنة أيام العدوان الثلاثي على مصر. لا أزال واعيها.

ضحك مصلح فانفجرت أسارير الشبل.

-هل استخدمت البي سفن سابقاً؟

-أنا ملك البي سفن يا أخ.

-أين استخدمته أول مرة؟

-في معركة الكرامة.

-هل أصبت شيئاً؟

-قالوا لي أنني دمرت دبابتين للعدو.

-من الذي قال لك ..؟

-الذين حملوني إلى المستشفى. لقد أصبت بعد أن اصطدمت بالدبابة الثانية.

-هل تنفجر قذيفة البي سفن إذا سقطت على الأرض بشدة؟

نظر إلى سعد مستفسراً. هز سعد رأسه بالإيجاب

قال الشبل:

-نعم.

-إذا سقطت على الأرض لسبب ما وكانت القذيفة في القاذف فهذ يعني أنها قد تنفجر، صحيح؟

تطلع الشبل ثانية إلى سعد. ابتسم سعد فقال الشبل:

-صحيح

-إذن قد تكون بين إخوانك في الدورية فتسقط غصباً عنك فتنفجر وتقتلك وتقتل إخوانك. أليس هذا ممكناً

رد الشبل دون أن ينظر إلى سعد

-ممكن.

-وبهذا تكون قد أديت خدمة للعدو. أليس كذلك؟

-أنا لا أخدم العدو. (قال الشبل بحدة).

-ولكن الاستهتار، وعدم الحرص، وعدم اتباع كل وسائل أمن السلاح وأمن الأفراد والمهمات قد يقود إلى قتل زملائك. أليس قتل الفدائيين خدمة للعدو..؟

-أجل.

-إذن فالاستهتار الذي قد يؤدي إلى قتلهم يكون خدمة للعدو. أليس كذلك؟

-نعم.

طلب مصلح من الشبل أن يجلس، وسأله:

-لماذا تريد المشاركة في الدورية؟

-لأنني أريد أن أستشهد.

ابتسم مصلح وقال:

-إذن أنت تريد أن تموت؟

قال الشبل بإصرار:

-لا أريد أن أموت. أريد أن استشهد.

سأله عمر مبتسماً

-وما الفرق بين الموت والاستشهاد؟

سكت الشبل. نظر إلى سعد وعاد يحدق في عيني مصلح وهو يردد

-لا أدري

ربت مصلح على كتف الشبل وهو يقول:

-يا بني، عندما تدخل المعركة فإن مهمتك الأولى هي أن تقتل العدو، لا أن تقتل نفسك. الهدف هو النصر وليس الاستشهاد. الذي يدخل المعركة من أجل أن يقتل العدو، من أجل النصر، لا يموت إذا قتل وإنما يستشهد. هل فهمت الفرق.

نظر الشبل إلى سعد وعاد ينظر إلى مصلح وسأل:

-هل ستأخذوني معكم في الدورية؟

سأله مصلح:

-إذا لم نأخذك، ماذا ستفعل؟

عاد ينقل أنظاره بين سعد، ومصلح، وعمر، وعيسى، وعبد السلام. فكان يرجو أن يجد جواباً في عيون أي منهم. البسمة على وجه عمر جعلته يقول:

-سأنتظر. وسأذهب في أول دورية قادمة.. نحن في أول الطريق.

قبله مصلح بحنان وقال لعمر:

-ألا تعتقد أنه سيفيدنا في الداخل للاتصال وتأمين الطعام.

-فكرة جيدة. (رد عمر) خاصة إذا كان لديه ملابس مدنية. أنت تذكر المرة السابقة أهمية الملابس المدنية لتأمين الاتصال.

هتف الشبل فرحاً:

-عندي .. عندي ملابس مدنية جديدة. قميص وبنطلون.

-وحذاء .. الحذاء ضروري جداً (قال مصلح) انك ستكون مفيداً شريطة أن تحافظ على النظام. وإلا ..

-سأنضبط .. وسننتصر..

الجزء الحادي عشر

(11)

غاصت الشمس خلف الجبال مخلفة بقايا أشعة حمراء مختلطة بغبار الصيف. كانت حرارة الغور تعصر أجساد الشباب وتلف وجوههم ورقابهم بطبقة من الغبار الممتزج بالعرق. ومع تحرك الدورية نحو النهر بحملها الثقيل من الألغام وقذائف البي سفن.

كانت السنة ظلام قد بدأت تطرد بقايا النهار عن عالم الأغوار وأخذت النجوم تجد متسعاً لتحفر دربها نحو عيون الشباب. المسافة إلى النهر تحتاج أكثر من ساعة. ولكن لابد من الانتظار حتى يعم الظلام. قال سعد.

ـ سنتوقف هنا قرب تلك الأشجار. وبعد ساعة نستطيع التحرك بأمان بمحاذاة النهر.

كان مصلح يفكر في مكان آخر. ليس بعيداً من المكان الذي أشار إليه سعد. مسيرة عشرة دقائق على الأكثر التفت إلى عمر وقال.

ـ ما رأيك في نقطة التجمع مع مازن. انها أنسب وأقرب إلى النهر، تطلع سعد متسائلاً.

-وأين هي ؟ ابعيداً من هنا ؟

-لا .. عشرة دقائق غرباً.

-ستكون مناسبة جداً إذا كانت في منطقة مشجرة

-إنها كذلك.

وتحرك الشباب خلف مصلح الذي اندفع نحو المنطقة التي عرف فيها مازن على حقيقته أول مرة. كان يعد السير رغم حمله الثقيل. لقد أصر أن يتوزع على الجميع حمل الألغام والقذائف حتى يصل الجميع وهم في حالة استعداد كامل ويتوازن لتنفيذ المهمة. كان الشبل مجاهد يركض إلى جانبه محاولاً ان يتابع خطواته. بينما كان أبو عمر يحاول أن يقوم بدوره كدليل للدورية ليظل محافظاً على لقبه ملك الاستطلاع.

ضحك مصلح وهو يخاطب عمر بصوت مرتفع.

ـ الأخ عمر صار لقبه أمير .. الأمير عمر قائد دوريتنا حتى النصر. (قال مجاهد وهو يركض إلى جانبه).

-لماذا أمير بس. ملك الدورية ازبط.

ـ لا .. لا يجوز ذلك .. أبو عمر ملك. إذن عمر أمير وبس قال أبو عمر أصبح بمحاذاة مصلح.

ـ قائد دوريتنا إمبراطور. مش بس ملك.

صاح عيسى معلقاً وهو يلقي بحمله على الأرض.

ـ وصلنا ليسقط الملوك والأباطرة، ولتحيا الثورة.

-هنا ننتظر (قال مصلح).

ألقى سعد حمله على الأرض وجلس. وجلس بقية الشباب بينما بقي مصلح واقفاً يتلفت في اتجاهات مختلفة ... نظر إلى المجموعة وقد تراصت حول بعضها البعض. انتقل إلى الماضي .. ما هذا .. عيسى يناقش عمر بجدية، هشام يصرخ .. وجوه تسيطر على مخيلته. اتجه نحو الكرامة رأى مازن يقبل وهو يحمل على ظهره كيس التموين.

ـ طلقة واحدة على العدو الصهيوني أجدى من كل صراخ إذاعات الأنظمة المهزومة. وأجدى من أطنان الورق وانهار الحبر التي تخدر شعبنا العربي.

بهذا أنهى مازن الحوار الساخن الذي دار بين شباب الدورية ليلة أول عبور لمصلح إلى الأرض المحتلة. كانوا عشرة شباب قيادة مازن. توقفوا في نقطة بين الكريمة والنهر ينتظرون الليل للعبور تحت ظلاله. ويومها دار حديث مستفيض عن الأمة العربية وعن جديتها وقدرتها على التحرير وكمن يتابع حديثاً في حمام قطع ماؤه. كانت الآراء تأتي من كل الاتجاهات لتصب في كل الاتجاهات بحيث لا يستطيع أي مراقب أن يحدد تقاطع هذه الآراء المتضاربة. وفجأة طرح هشام لطفي سؤاله الصاعق.

ـ إذن لماذا نحن ذاهبون إلى الأرض المحتلة ؟

وفغر البعض أفواههم. وانكمش الآخرون على أنفسهم. وحدد أحد الشباب موقفه بسرعة قائلاً.

-أنا ذاهب لأستشهد في سبيل الله.

وضحك هشام بسخرية.

ـ تستشهد، وهل كل ما تحتاجه فلسطين هو شهيد جديد ينضم إلى القافلة.

صرخ الشاب بحدة المدافع عن رأيه.

-قلت استشهد في سبيل الله. والوطن وتحرير الأقصى.

ضحك عمر يومها وقال.

ـ هل جامع الجزار وعكا ويافا وحيفا لا تستحق الاستشهاد. غمزه هشام بطرف عينه ويده تمتد طالبة منه السكوت وهو يتمتم.

-انتظر يا عمر. دعة يكمل رأية.

-هذا رأيي قلته. ومن أجله أنا على استعداد للتضحية.

قال عمر للشاب وهو يمد يده إلى هشام كمن يطلب الأذن بالحديث ـ والأرض العربية المحتلة. والوطن العربي والوحدة العربية. ألا تعني شيئاً بالنسبة إليك انني شخصياً ذاهب للنضال من أجل تحقيق الوحدة العربية.

قال هشام بحدية

ـ أية وحدة عربية. وحدة أنظمة الخيانة والعمالة. أين الشعب العربي. والظلم. والاضطهاد الذي يعانيه الفقراء في كلل أرجاء الوطن العربي. كل هذا لا يعني شيئاً أهم من الشعارات.

الأغنياء والخونة الذين يعملون جميعهم جواسيس للأمريكان والصهاينة. وتجار النفط الذين يبيعون الشعوب كل يوم. إنكم تخطئون. ان الصراع الطبقي هو الذي يجعلنا نحدد بوضوح جبهة الأصدقاء وجبهة الأعداء، ويحدد أيضا بوضوح طبيعة كل مهمة لنا وأهدافها. ولهذا فإننا لا يجب ان نصارع ونقاتل فقط داخل الأرض المحتلة. بل

في الأرض العربية المليئة بالمحتلين من عرب أمريكان وعرب الصهاينة وإسرائيل .

صاح عمر

ـ هذا تمييع للقضية والذي يكبر حجره ما بيضرب هذا كلام فارغ .

وردد أحد الشباب معلقاً

ـ ورأيك أيضاً مائع يا أخ عمر . فالذي يصغر حجره لا يؤذي العدو كثيراً .

-مش صحيح

ـ كلام فارغ .. الصراع الطبقي هو الأساس . ولابد من انتصار الاشتراكية .

-بلاش فلسفة.

-غباء .. قلة حيلة

-جهلة ..

-مرتزقون ..

-ثقافة .. رجعية .. عملاء

-ما فيش فايدة.

وكادت القبضات تجد سبيلها إلى الوجوه لولا صوت مصلح الذي صاح بعد أن لمح مازن مقبلاً

ـ عيب يا باب نحن لنا مسؤول . وها هو قادم لماذا نختلف على قضايا نظرية لنسأله .

كان مازن يقترب من المجموعة وعلى ظهره كيسا ألقاه وهو يتأفف .

قال مصلح لمازن

ـ كان الشباب في حالة حوار صاخب وقد اختلفوا على الهدف الذي من اجله نتوجه إلى القتال في الأرض المحتلة.

تنهد مازن وفتح الكيس . كان مليئا بالطعام والفواكه نشر المحتويات أمام الشباب وهو يسأل .

-وعلام الاختلاف ؟

عادت الآراء تلقى موجزة متقاطعة مع أصوات المضغ الذي بدأ يهرس من محتويات الكيس . كان هشام حاداً وتفصيلياً في تحديده لرأيه وأكتشف مازن طبيعة المأزق الذي يعانيه الشباب . انه نفس المأزق الذي مر به قبل شهرين . يوم عبوره الأول إلى الأرض المحتلة . كان يومها يتبنى نسبيا موقف هشام . وتذكر كيف كانت إجابة قائد الدورية . التجربة لا تزال طازجة . وتأثيرها الإيجابي لا يزال راسخا في ذهنه فقرر إعادتها .

هز مازن رأسه قائلا للجميع

ـ هل رأيتم الخيم المنتشرة على طول الطريق وأشار بيده إلى تجمع النازحين الجدد في مخيم الكريمة . ثم مد يده باتجاه الكرامة واستطرد .

ـ وهناك في الكرامة . وغيرها من المخيمات مئات الآلاف من أبناء شعبنا الذين فقدوا كل شيء .

انني أتوجه إلى الأرض المحتلة للنضال من اجل إعادة هؤلاء إلى أرضهم والى بيوتهم . إننا نحرر بذلك الأرض . وفوق أرضنا المحررة فلتتصارع كل الآراء . ولنختلف ما شاء لنا الاختلاف .

ان تحرير فلسطين هو الطريق لتحقيق كل أهدافنا الأخرى أليس كذلك يا حسن ؟ أليس كذلك يا عمر ؟

وامسك مازن يد هشام شادا عليها وهو يردد

-ان كان هشاك يوافقني على ذلك.

وسكت الشباب . فاستطرد بسرعة وتأثير حديثه لا يزال واضحاً على الوجوه .

ـ طلقة واحدة على العدو الصهيوني أجدى من كل صراخ إذاعات الأنظمة المهزومة . وأجدى من أطنان الأوراق التي تخدر شعبنا العربي .

واتجه مازن مبتعدا محتفظا بيد هشام في يده وتبعهما مصلح

قال هشام

ـ أخ مازن . انا ارفض ان تعاملني هكذا . كالأطفال

رد مازن بجدية غاضبة

-وأنا أرفض ان تنفس الدورية وتخرب المهمة

رد هشام مدهوشاً

-كيف ؟ .. ماذا تعني ؟

ـ اعني انني إذا أخذت موقفك فان ثلث الدورية ستبقى معنا . والثلثين سيذهبون مع حسن وعمر وإذا أخذت موقف عمر فان ثلثي الدورية سيذهب مع حسن وهكذا .. إننا في مرحلة التحرر الوطني . هل فهمت ماذا يعني ذلك .

ان الموقف الأيديولوجي سيتبلور حتما عبر النضال المرير الطويل . إننا في هذه المرحلة محكومين بالأيديولوجية الوطنية .. فلا تستعجل الأمور يا عزيزي هشام ولا تنسى ان طريق فلسطين هي طريق الوحدة، طريق القضاء على التجزئة وعلى التخلف وعلى كل أشكال الاستغلال .

الجزء الثاني عشر

(12)

المجموعة تقترب من النهر . وقلب مصلح يزداد خفقانا . النهر والخوف منه من جهة وتوقع اللقاء مع خليل ابن عمه من جهة أخرى . أبو عمر يشق طريقه بسرعة على رأس الدورية وخلفه مصلح . وعمر في المؤخرة يراقب التحرك العام للدورية . وارتفع صوت صفير ورد عليه سعد بصفير مماثل . ثم اتجه الجميع نحو نقطة التجمع . حيث شاهد مصلح عن بعد أربعة أشباح في الظلام . اقتربت الأصوات وبدأت ملامح الهيئات تتخذ أشكالا بشرية اكثر وضوحا . وعلى بعد خطوات من سعد كان مصلح قد تسمر يستمع إلى صوت ابن عمه خليل .

-أهلا بالشباب.

ورد سعيد

-كيف الأوضاع. وكيف النهر.

ـ عال .. فرصة لا تعوض . وجدنا نقطة عبور ليس عندها أي أثر للألغام . ولا حتى للأسلاك الشائكة . قد تكون وعرة نسبيا ولكنها أكثر نقاط العبور أمنا . النهر فيها لا يتجاوز عرضه خمسة عشرة مترا ولكنه عميق .

وقف قلب مصلح . وتجمدت شفتاه . هذا ابن عمه خليل ينصب له كمينا في اعمق نقاط النهر .

ومن قال له إننا نخشى الألغام والأسلاك الشائكة هذا خليل أبو وردة . تقدم منه مغتاظا وفرحا بعد ان تأكد من هويته بشكل مطلق .

-سلامات يا أبو ابراهيم.

واقتربا من بعضهما البعض. واستطرد مصلح.

ـ لقد أصبحت مقاتلا شديدا . كنت عند وعدك .. وأرتفع صوت خليل وهو يعانق مصلح .

ـ يا هلا . يا هلا . والحمد لله على السلامة يا ابن العم . كان الظلام يسرق ملامح الوجوه ولكنه ظل يعطي عموميات تلتصق بالأصوات فتنسخ صورا أكثر وضوحا.

قال مصلح ويده لا تزال تحتضن يد خليل

-كنت متوقعاً أن أقابلك هذه الليلة

-كيف عرفت. هل أخبرك سعد ؟

ـ لا . قالوا ان أبو ابراهيم هو ملك الكتب في قاعدة الشهيد مازن عندها قدّرت انك ستكون هنا رغم كراهيتك للكتب في عمّان فقد كنت متأكدا من أنك ستعشقها أكثر في الأغوار . هذا ما حصل معي في قواعد وادي عربة .

-يبدو ان المعرفة قديمة بينكما

قال سعد وهو يحشر نفسه بينهما .

-منذ خُلقنا (قال ابراهيم) ولكنني لم أره منذ مدة طويلة

ـ ستعبران النهر معا هذه الليلة . وستعوضان عن أيام الفراق . علينا العبور الآن بأسرع ما يمكن .

هذه هي اللحظات الحرجة في حياة مصلح . كانت دائما هكذا . يشتم رائحة النهر فيشعر كأنه يزور مقبرة فتحت قبورها لترسل رائحة الموت الكريهة يسال خليل .

-هل نقطة العبور عميقة جداً ؟ سمعتك تقول هذا

ـ إنها كذلك . ولكن عبورها سيكون سهلا فلدينا قارب مطاط جيد ومجهز بالحبال للعبور من ضفة إلى أخرى بسهولة . لن يبتل أحد من الشباب .

أقترب من النهر . كان منظره يختلف عن أي مرة رآه مصلح . انه يبدو صغيرا وضعيفا .

واستغرب عمر لماذا أمضى من لياليه الكثير وهو يصارع هذا الوهم، وقف ينظر إلى آخر ابتكارات ابن عمه خليل . كان أحد الشباب على الضفة الأخرى من النهر يمسك حبلا متصلا بمقدمة الزورق .

وعلى الضفة الشرقية وقف شاب قوي يمسك حبلا متصل بمؤخرة القارب الذي التصق جانبه بضفة النهر .

ألقى عبد الجليل والفسفوري حملهما قرب الزورق تلبية لإشارة من سعد ركب عبد الجليل القارب المطاطي مع سلاحه الفردي . جلس في المؤخرة وظهره باتجاه الشرق . وبدا الشباب على الطرف الآخر بجر الحبل بهدوء وأخذ القارب ينساب فوق الماء دونما عقبات حتى وصل خلال اقل من دقيقة إلى الطرف الآخر . قفز عبد الجليل منه إلى الضفة الغربية وبدأ الزورق يعود بسرعة إلى الضفة الشرقية . ثوان قليلة استغرق الزورق ليعود ومصلح يرقص قلبه فرحا من هذا وجلس الفسفوري ونور الدين في الزورق . وعاد الزورق .

ـ هيا يا مصلح (قال عمر) ستعبر أنت وعيسى دفعة واحدة . كان هذا كافيا ليزيد اطمئنان مصلح جلس في الزورق متماسكا لأول مرة يشعر انه لن يصرخ ولن يستغيث . أقدامه تلتصقان بأقدام عيسى العوام ويداه على بعد قدم من أيدي عيسى وعيناهما تسبحان معا في النهر الذي يخشاه مصلح حتى الموت . وقبل ان يفكر بالخطر من الموت بالماء . كانت يد الفسفوري تمتد لتمسك بيده على الضفة الأخرى في فلسطين . انه اسهل عبور...

وصلت كل الألغام والذخائر والأطعمة التي حملوها معهم . وبقي عمر وأبو ابراهيم على الطرف الآخر كان آخر من دخل ولما وصل عمر إلى الشاطئ كان يضحك وسأله عيسى .

-لماذا تضحك ؟

-لم يجب. استمر في الضحك . سائلاً

-هل تبللت يا مصلح ؟ ...

ويرد مصلح بهدوء

-بللك يا ملعون. هل هذا وقته يا قائد الدورية

ـ هيا بنا . قال عمر وهو يرتب المسيرة التي أصبح على رأسها أبو ابراهيم يتبعه مصلح وبعدها أبو عمر وفي نهايتها كان عمر يسير جنبا إلى جنب مع سعد .

كان الوزن الثقيل من الألغام والذخائر التي تحملها المجموعة قد فرض عليها أن تسير ببطء شديد رغم سهولة العبور وغياب الحواجز . إلا ان أمرا هاما واحدا كان يسيطر على عقل مصلح وهو ضرورة الوصول إلى الجبل

قبل الفجر، هذه هي الوسيلة الوحيدة لقطع دابر كل محاولة لكشفهم وتعقبهم من العدو الصهيوني .

أسرعت الدورية . ومع إطلالة الفجر كان جميع أفرادها قد استلقوا متعبين على أحد السفوح الوعرة بين طوباس والفارعة .

قال مصلح لعمر.

ـ أحدنا يجب ان يظل مستيقظا . دع الجميع يرتاحون الآن . ويمكنك ان تنام أيضا. سأوقظك بعد أربع ساعات لأنام انا . هذا المساء يجب ان استطلع منطقة طوباس والمغارة حتى يتسنى لنا إنشاء قاعدة المواجهة هنا كانت الشمس قد أخذت تشق دربها عبر السماء فترسم صورا جديدة في عين مصلح . اكتشف أول ما أكتشف ان الموقع الذي يتمدد فيه الشباب ليس هو الأنسب فعلى بعد خمسين مترا من السفح الأجرد إلا من بعض الأشجار، رأى بستانا كثيفا يحيط به حقل من الذرة الخضراء أخذ مصلح يحرك الشباب واحدا واحدا . ويساعدهم على التحرك إلى حيث المكان الجديد .

الجزء الثالث عشر

(13)

كان وجيب قلبه يزداد كلما اقترب من طوباس اكثر . وكانت هدأة الليل تلقي سكونا يجعل لخطواته وقع صدى بعيد . همس في إذن ابن عمه خليل سائلا .

-هل جئت إلى هذه المنطقة سابقاً ؟

ابتسم خليل وقال

-لقد ولدت هنا . هل نسيت ذلك ؟

-أقصد هل جئت لتنفيذ عمليات في هذه المنطقة ؟

-لا .. هذه أول مرة.

ـ كان مجاهد يحاول الالتصاق بمصلح طول الوقت وعيناه كانتا تستكشفان الظلام كعيني هر .

قال مصلح لمجاهد

ـ عندما سنصل إلى المكان المحدد ستبقى أنت وأبو ابراهيم وسأعود انا لإحضار المجموعة .

عليك ان تكون هادئا حتى تسير الأمور على خير .

ـ اطمأن . هل بدر مني أي خطأ ؟ انا مستعد للتصحيح حسب أوامرك .

ـ لا بأس أمورك تسير على ما يرام

كان يلاحظ بعض التغيرات على الطرق والأبنية ولكنه لا حظ من بعيد منظر أرضهم المنبسطة حيث تتداخل الغصون لتجعل من البيارة قطعة داكنة داخل إطار رمادي. كانت عيناه تسقطان على البلدة بيتهم أمامه . انه الليل لا يميز شيئا . الأضواء الخافتة في معظم البيوت . ولكن الألوان كلها قد نامت مع البلدة النائمة . وتسلسل إلى البيارة كانت المغارة على مقربة من البوابة إلى الجهة الغربية . بينما كان بئر الماء في الطرف الجنوبي البعيد . اتجه ناحية المغارة ببطء كانت كثافة الأشجار تسدل عليه ستارا من الطمأنينة . والضوء الخافت المنبعث من فضاء بيتهم على مرمى النظر يجعله يشعر بان طوباس تحييه وتفتح اذرعها احتفاء به . واقترب من المغارة اكثر، كان اللون الأبيض بشق طريقه عبر الظلام . لم يدر معنى تلك الدائرة السوداء في وسط الإطار الأبيض . باب المغارة المعتم وواجهتها المطروشة بالجير لفت نظره بسرعة يبدو ان المغارة وجدت من يهتم بها أخيرا . اقترب من الباب تاركا ابن عمه خليل والشبل في الخارج .

أشعل عود ثقاب . وبلمحة بصر لاحظ التغيير الكبير على وضع المغارة . لقد تركها وهي تزخر ببقايا روث الغنم والبقر وهي الآن تبدو نظيفة بيضاء . لمح مصباحا معلقا على الجدار . اتجه نحوه لإشعاله وقبل أن يمسكه سمع صوت الشبل يطلب منه الخروج .

-أخرج بسرعة .. هنالك أصوات قادمة

اندفع إلى الخارج . وكمن إلى جانب الشبل تحت شجرة على مقربة من باب المغارة . كان خليل على الطرف الآخر يراقب تحركات الأصوات القادمة بهدوء اقترب الشبح من باب المغارة . وأخذ يهمس

-تعالي .. لا تخافي يا حبيبتي

بحلق مصلح مستغربا . رأى شبح آخر بملائه سوداء يقترب من الشبح الأول . لم تكن الرؤيا واضحة . ولكن قربه من باب المغارة وصوت الشبح الأول جعلاه يقفز بأفكاره إلى حقيقة الوضع التي وصلت المغارة كهفا للعشاق .

وتساءل هل تصلح لأقامتنا لتنفيذ المهمة . وكان الإيجاب آخر ما خطر له على بال وامتلأت المغارة بالأنوار . كانت عينا مصلح تعبران قلبها . ومع ضوء المصباح الساطع على وجه الرجل صاح قلبه بمرارة .

-اسلخي .. ابراهيم عواد ..

كانت الملاءة تغطي جسم المرأة . وظهرها يسد معظم ضوء المصباح عن الوصول إلى الخارج ولكن وجه ابراهيم عواد كان يرقب في عيني مصلح انه يتذكر هذا الوجه منذ سنوات طويلة .

هذا الوجه الذي كرهه سنوات قبل أن يحرضه خالد عواد في رسائله عليه . انه الآن جاسوس للصهاينة ابراهيم عواد، وابراهيم اسلخي، أو السلاخي أو السلاخ . لقب يتفاوت ويتغير مع الأيام عندما كان يعمل جزارا في مخيم الفارعة ويغش اللاجئين ويبيعهم لح القطط والكلاب . وكلما هب ودب كانوا يسمونه السلاخ . وعندما صاع وضاع بعد ان اكتشفت الحكومة أمره وسجن سنة وخرج بعدها من السجن وهو يحمل لقب السلاخي . كان الجميع يزدرونه . وكان يكدس أحقاده لينتقم من الجميع ويبدأ سلخ البشر في ظل الاحتلال الصهيوني . كانت أول مهامه مع العدو هو ان يعمل رجل كيس يرشد العدو على المعادين للاحتلال بإيمائه من إصبعه أو رأسه . ولكنه قرف المهمة المستترة فمزق الكيس علنا وفي الساحة العامة وأعلنها صراحة انه رجل السلطة . وان كل من يعاديها يعاديه وازدادت سطوته لدى الصهاينة بعد ان أطلق عليه الفدائيون النار . ولكنه لم يمت رغم ان الرصاصة اخترقت رأسه . كانت الإصابة قاتلة وقال الجميع انه مات . ولكن السلاخي عاد بعد اشهر وقد ازداد شراسة وحقدا . كانت إصابة رأسه ظاهرة وأصبحت مجال تنذر للكثير من أعيان البلدة ووجهائها .

ـ والله يا سلاخي . لو كان في رأسك مخ أو دماغ لقضت عليك الرصاصة ولكن من حسن حظك أن رأسك فارغ .

ويضحك السلاخي وهو يردد

ـ ولا يزال . وكل جسمي فارغ . فأنا محصن ومحجب ضد رصاص المخربين . كان السلاخي يعشق فاطمة أبو وردة . وكانت فاطمة تحتقره . فمنذ ان تقدم لخطبتها قبل خمسة وعشرين سنة كانت تراه تافها ولم تجد صعوبة في إقناع ذويها برفضه رغم تدخل الكثيرين من وجهاء البلدة وعائلة عواد الغنية .

وتزوجت فاطمة من يحيى أبو وردة وأنجبت مصلح وسلمى ويوم وضعت ابنها الأخير استشهد يحيى أبو وردة الأب مقاتلا ضد العدو .

فسمت الصغير يحيى.

ظل السلاخي عازبا يحلم ان يصل قلب فاطمة بغش اللحم . ويجمع النقود على أمل الحصول على فاطمة . كانت فرحته لا توصف يوم استشهد زوجها يحيى . كانت طوباس كلها في مأتم حقيقي إلا ابراهيم اسلخي الذي اعتبر ان معركة قلقيلية لم تحصل إلا من اجل ان تحرر فاطمة من زوجها لتصبح له وكان يصرخ بوقاحته المعهودة .

-عاش اليهود. فليسقط العرب. تحيا فاطمة.

وضعه المحترمون من أقاربه في قبو واقفلوا عليه مدة شهر كامل عله يرتدع، ويستعيد وعيه وإدراكه لكنه ظل

يهذي ويردد اسم فاطمة مع كل زفرة وشهقة . فقرر مجلس العائلة نفيه من مخيم القارعة ومنعوه من دخول طوباس . حتى يثبت حسن التصرف واللياقة التي تؤهله حمل لقب عواد .

ها هو السلاخي أمام مصلح . وظهر امرأة يكاد يحرق قلب مصلح .

يد السلاخي تمتد لتحتضن المرأة . كاد إصبع مصلح ان يعانق الزناد لولا انه استمع إلى صوت يرتفع صائحا .

-من في المغارة

التفتت المرأة نحو باب المغارة . كان وجهها قبيحا رآه مصلح تنفس الصعداء . اتجه السلاخي ناحية المدخل والمرأة تسير خلفه بحياء وأخذ نور المصباح يدوي يسقط على وجه السلاخ الذي سأل :

-انت مين ؟

ـ انا يحيى أبو وردة . أنت مين ؟ رقص قلب مصلح فرحا وهو يشاهد أخاه الصغير . وتذكر تعليقات مازن

ـ يا مصلح . أخزك يحيى فلته . سيكون مقاتلا عظيما . ويحدق بأخيه يحيى الذي يمسك مصباحه اليدوي المسلط على وجه السلاخي بثقة ويستعيد صوت مازن

ـ يا يحيى خذ الكلاشنكوف بقوة

ويرد يحيى

ـ الكتاب يا أخي . ليس في القرآن كلاشنكوفات ولكن مازن يؤكد

-الكتاب لا يكفي يا يحيى.

الحق الضعيف باطل وصاح السلاخي وقد أزعجه نور المصباح

-انزل الضوء عن عيني

قال يحيى

-ماذا تفعل هنا ؟ .. من معك

تحرك السلاخي مقتربا من يحيى تاركا المرأة تتجه بعيدا وهو يردد

ـ بلاش فضائح .. يا شاطر غدا تكبر وربنا يسترها معك . أرجوك لا تخبر أحدا. لا تخبر أمك . أرجوك

رد يحيى برصانة

ـ إذا أردت أن تقل أدبك . ابحث لك عن مكان آخر . ابعد عن أرضنا . أم تظن أسيادك يخيفوننا .

استغرب مصلح ان يسمع هذا الكلام بهذه الثقة من شقيقه الصغير

وارتفع صوت نسائي من بعيد يسأل

-مين يا يحيى ؟ ليش اتأخرت ؟

-رقص قلب مصلح، هذا صوت أمه

تمتم السلاخي مخاطباً يحيى وهو يتجه بعيداً

-أرجوك. لا تخبرها

رد يحيى

-لا شيء أنا قادم.

ودخل يحيى إلى المغارة. كان المصباح لا يزال مضاء نفخ يحيى عليه فانطفأ وخرج من المغارة حاملا في يداه سلة صغيرة بينما كانت يده اليمنى تشق الدرب أمامه بأشعة مصباحه اليدوي.

الجزء الرابع عشر

(14)

المهمة المرتسمة في ذهن مصلح بشكل متكامل وهو حين يحاول ان يمارس دوره كقائد فعلي للدورية . كان يصطدم مع الوهم القديم للنهر ولأنه كان قد تجاوز تلك العقدة في العبور فأنها لا تزال ترسم بقايا باهتة تختصر التفكير بالعودة على شكل آهة وتمتمة (ساعتها .. الله يفرجها) .انتشر في أرجاء البيارة بعيدا عن المغارة . كان مصلح قد ارتاب من الحالة الجديدة التي وجد المغارة عليها ، لاحظ ان الوضع كله قد تطور . فمع اشراقة الصباح الأولى . كان نبض البلدة من البعيد يعبر على شكل نسيم يحرك الغصون الخضراء . وكانت نافذة الأمل تطل عليه من على السفح . هنالك أمه . وسلمى ويحيى . كم كان رائعا ذلك الفتى ليلة البارحة .

كم بدا السلاخي قزما أمام يحيى أبو وردة . انه الخصم اللدود لابراهيم عواد منذ البداية .

يحيى الأب هو الذي امتلك فاطمة ويحيى الابن يشكل أسدا أمام السلاخي . تخيل أمه تفتح النافذة مع انطلاق أشعة الشمس فيبدو وجهها انعكاسا بصفاء الفجر المنطلق بالنور .

انها تلقي علينا تحية الصباح . نحن أشجار هذه البيارة أبناء أمي وهي لن تقصر بنا . ولن يطول انتظارنا حتى نغرق في فيض حنانها . علينا ان نتدبر الاتصال بها بأسرع ما يمكن .

كان عمر يدس رأسه بين الأغصان باحثا عن فرجه يشاهد فيها صفحة البيت الأخضر . لقد عاش أياما طويلة في رحلته الأولى مع مازن وهو يتصبح كل يوم بوجه أم مصلح .

كان الوحيد مع مازن الذي يعرف سر مصلح والآن في هذه الدورية هو أيضا الوحيد مع أبو ابراهيم اللذان يعرفان هذا السر . وكان عليه ان يتم الاتصال بطريقة تختلف عن الصدفة التي كانت المخرج الذي أمن اتصالهم السابق .

ـ اعتقد ان أبو ابراهيم هو خير من يحقق الاتصال انه اضمن من المغارة بواسطة الشبل مجاهد .

تأفف مصلح مستاء وقد تذكر حادث الأمس لقد ضاعت علينا بالأمس فرصة ذهبية. ضيعها ابراهيم اسلخي كان يحيى هنا وحيدا قرب المغارة لا تفصله عن خليل سوى أمتار ولكن لا بأس . انني أعتقد ان مجاهد إذا تحرك في الوقت المناسب فأنه سيحقق الهدف .

ان التقارب في السن بينه وبين يحيى يساعد على التمويه. انني أخشى ان يقابل خليل أحد أبناء البلدة بالصدفة. انه معروف في البلدة. وقد يثير لقاؤه مع أمي سلسلة من التساؤلات حولي.

ابتسم عمر وقال. -انني خير من يقيم الاتصال. سأذهب لأخبرها انني قادم من أسبانيا خصوصي للسلام عليها. ونقل الف الف سلام لها من ابنها المجتهد صالح. ما رأيك. -كفى مزاح -ثم انني اعرفها جيدا.ولاشك انها تذكرني فأنا الوحيد الذي كان مازن يسح له الاتصال بها.

ويحي يعرفني جيدا. -قلت كفى مزاحا (قال مصلح بجدية) مرت في تلك اللحظة سيارة أمام البيت الأخضر مخلفه ورائها مزيجا من الدخان والغبار. قال مصلح

-الصدفة هو. العدو رقم واحد للضرورة

-ماذا تعني ؟...

ـ لو أنك كنت تحاول تحقيق الاتصال . فوصلت إلى باب بيتنا وتصادف وأنت تطرق الباب ان عبرت سيارة عسكرية للعدو . ماذا سيحصل

ضحك عمر وقال

ـ بسيطة .. نتعرف على العدو . ونحقق ضرورة الاتصال به .. بالرسائل الضرورية ولا ضرر في ذلك .

ـ فلسفتك ستقتلني . أمامنا يومين لتنفيذ المهمة والتموين ليس هو المشكلة وإنما فكرة لتحويل خط سير إمدادات العدو إلى الطريق الترابية شرق البلدة وهذه المهمة لا يستطيع تنفيذها إلا أبو عزيز وهنا تكمن ، الضرورة الاتصال ياسرع ما يمكن .

قال عمر باسماً

ـ ولكن التموين مهم أيضا . ولم تكن فكرتك ان نستبدل الطعام بالألغام .

ـ صحيح . ولكن الخضرة حولنا لن تجعلنا نموت جوعا وأشار مصلح نحو البيت والفرحة تغزو قلبه وصاح

ـ انظر .. انظر . ها هي أمي تطل من البيت . لقد اقترب البيت منا عندما أطلت أمي . إلا . ألا تلاحظ ذلك ؟

ـ انها الفرحة، تحطم قوانين الطبيعة والضوء، تمتع بوجه أمك الصبوح الذي لم تورثك منه شيئا .

-لعنك الله.

كان مجاهد يقترب منهما بوجل محاولا التستر من أي مصدر ضوء . اقترب وحياهما . ناداه مصلح . وضع راحته على كتف الشبل وأشار بيسراه

-هل ترى ذلك البيت الأخضر ؟

-أجل

ـ المرأة التي تراها هناك هي التي ستؤمن الطعام وهذا يقتضي ان نخبرها إننا هنا تحرك الشبل باستهتار ..

-الآن أذهب واخبرها

امتقع وجه مصلح . وضغط على رقبة الشبل بعصبية

ـ هل ستعود إلى سخافاتك وحماقاتك .. نحن الآن في الأرض المحتلة أنسى شيطنة الأغوار .

حاضر. وآسف

-سنذهب إلى البيت الليلة

كان الشبل يحدق ناحية البيت يحاول ان يقيس المسافة بينه وبين البيارة . البلدة بعيدة .

هذا البيت يبدو منزويا في تلك الناحية من البلدة . ولكنه بعيد نسبيا عن البيارة . كان يحاول التعرف على ملامح المرأة المطلة من خلف واجهة البيت . لم يستطيع تمييز ملامحها . ولكنه لمح صبية تقترب منها . رقص قلبه أنه يميز الآن الفرق بين الصبية بين أمها . الزمن يطل على وجهيهما نافثا أشعة مختلفة .

وجيب قلب مصلح يزداد . وذرات جسده تهتز .. سلمى سلمى . هذه العروس المطلة عليه . وتذكر خالد عواد أين هو الآن . لقد أرسل له مباركة خطبته من سلمى منذ شهرين ولا يدري هل أتصل خالد بأهله أم لا .

والتقت نظراته بنظرات عمر الذي كان يلاحظ تفاعله لدى ظهور سلمى وقال مجاهد معلقا .

-ياخرابي بنت مثل القمر.

وابتسم عمر. وامتقع وجه مصلح وردد حانقاً

-هل ستقل أدبك. أين نحن؟

رد الشبل مستغرباً.

-لم أفعل شيئاً

-كفى اتفق على مهمتك مع قائد الدورية وبدون ولدنة.

واتجه مصلح بعيدا ناحية المغارة اخذ يتفقد أوضاع الشباب وهو يفكر بالطريقة التي يمكنه فيها ان ينهي هذه المهمة بأسرع ما يمكن. لقد اصبح الشبل مصدر إزعاج له وتمنى لو انه تركه في القاعدة كان قد اقترب من المغارة فاصبح اقرب لمواجهة البيت .

كانت ملامح سلمى تكبر في عينيه بابتسامتها التي تستقبل بها شمس الصباح هل أخطأ الشبل عندما عبر عن جمال هذا الوجه . هل كفر حتى يؤنبه ؟ لو لم تكن هذه سلمى أكان تصرف كذلك ؟ ولكنه أيضا لا يستطيع ان ينسى انه صالح أبو وردة .وان هذه أخته سلمى وان هذا الشبل قليل الأدب وهل كان خالد عواد قليل الأدب عندما قال ان سلمى هي أعظم فتاة في البلدة . وهل جاء خالد عواد إلى طوباس . هل يمكن ان يكون هنا في طوباس ماذا يقول لهم . أسئلة كثيرة تزاحمت في مخيلته وهو يحدق في وجهي أمه وأخته تقفان على المصطبة ويبدوان بين أصص المزهور كوردتين تنطلق رائحتهما لتختصر مسافة السنوات الطويلة . فينشر العطر خياشيمه راسما طوباس عالما جديدا . يرى فيه البيت يقترب شيئا فشيئا ويذوب الاحتلال رويدا رويدا ليجعل مصلح يتعانق مع صدور الورود الدافئ .

الجزء الخامس عشر

(15)

مجاهد ينتظر الليل . يحدق في الشمس .يمس زحزحتها عن مدارها . يشد كل عضلاته ليدفشها خلف الجبال . انه على موعد مع غيابها ولكنها لا تغيب قال له عمر ان تلك المرأة تحب الفدائيين . وقد ساعدتهم سابقا عندما جاؤوا إلى هذه البيارة مع الشهيد مازن وان عليه ان يخبرها فقط انهم هنا . هذه كل المهمة كان يود ان لا تقف مهمته عند ذلك، كان يتمنى ان يكون المرسال الدائم بين البيت الأخضر والدورية الخضراء لقد رأى وجه الصبية عن بعد ولكنه ظل يتخيله جميلا مليئا بالعيون الخضر . وأنه يود ان يغرق في تلك العيون . ان مصلح لا يعرف الحب . يبدو انه مجرد من الإحساس . ولهذا نهره واعتبره قليل أدب . ابتسم في سره وهو يتمتم (خلينا الأدب إلك يا مصلح) .

الشمس تهوي إلى الغرب ببطء . ومجاهد يراها ترتفع من الغرب إلى الشرق . كالزنبرك كلما ضغط عليها خلف الجبل عادت . والبيت الأخضر يزداد وضوحا .

وظلال العيون الخضراء يفرش المسافة القصيرة بينه وبين البيت برموش حارقة . اتجه نحو شجرة السرو الأولى اختفى خلف جذعها . انها اقرب نقطة إلى البيت كان منظر البلدة المنشورة أمامه عن بعد يرسم خلف البيت لوحة جميلة خيل اليه ان البلدة كلها تنظر اليه، تراقب دقات قلبه ما أحلى الحب وقت الحرب . كانت جارته الصغيرة في الكراسة هي التي جعلته يترك المدرسة ويتحول إلى مقاتل . والدها الأستاذ ضربه لأنه غازلها انضم إلى معسكر الأشبال في الكرامة وجاء إلى المدرسة بعد شهر يحمل بندقية ولكن والدها الأستاذ وبخه أيضا ولكن بحنان . قال له ان عليه ان يهتم بالتعليم حتى يساعد والدته العجوز . في تلك الليلة سقطت على مخيم الكرامة آلاف القذائف، رحلت والدته العجوز إلى الآخرة . ورحلت جارته إلى مخيم البقعة وبقي والدها الأستاذ زميلا لتلميذه في القاعدة . كل المعايير تغيرت ومعركة الكرامة غيرت أشياء كثيرة . جعلته يعشق البي سفن . وجعلته يكبر سنوات . وجعلته يرفض ان يعامل في القاعدة كشبل . انه مقاتل . وند لأي مقاتل آخر . ومن حقه ان يحس ويشعر كأي مقاتل آخر . من حقه ان يحب وان يعشق . وليذهب مصلح بحنبليته إلى الجحيم .

تصلبت عيناه اللتان تعبران ظلال شجرة السرو إلى عالم البيت الأخضر . كل بيوت البلدة يشعر انها قاتمة ولا توحي بشيء مميز . إلا هذا البيت الأخضر . حيث تقيم السيدة الطيبة التي تحب الفدائيين . قرميد البيت يتلون كموج ساحر . يحاول ان يداعب أنظار مجاهد يشير اليه ببنان ازرق حيناً، وأخضر حينا آخر وأحمر أحيانا . والنافذة المشرقة نحوه . تنفتح ويردها الريح بالحب . تفتحها . تقف خلفها . وجه كالقمر. يسطع يبتسم للريح . ومجاهد يعصر عينيه ليحدق في الوجه أكثر . تمنى ان تبقى الشمس ساطعة إلى الأبد حتى يتسنى له الاستمتاع بطلعة هذا الوجه الساطع . ولكنه تذكر انه على موعد مع هذا الوجه وجها لوجه بعد غياب الشمس .

فلتذهب الشمس إلى الجحيم . فلتغرق في ليلها ليبدأ صباحه . أريد ان اقفز إلى البيت .. الآن ماذا لو ذهبت الآن . لو سألت ذلك الوجه الصبوح ان تفتح لي باب البيت لأتحدث إلى السيدة التي تحب الثورة وتحب الثوار . وتساعدهم .

وتداخلت أمنياته . واحدة تشد الشمس إلى المشرق ليظل مستمتعا بالوجه الذي تتشكل نافذة البيت الأخضر أروع بروازا له . والأخرى تدفعها إلى المغرب ليصبح اقرب فأقرب إلى ذلك القمر المتفتح في عالم البيت الأخضر .

بدأ اللون الأحمر يطغي . بدأ الشفق يحيط بعينيه . وقرميد البيت يوزع ألحانه على الهدوء الذي سيطر على البلدة . كانت الشمس تغرق في محيطها الدموي . وكان الزيتون يغيب في أحضان الألوان المتسارعة نحو الليل، شيئا فشيئا ... تقلصت عضلات عينيه . بدأت الحياة تشع في ساقيه وفي قلبه المتسارع الوجيب . سيذهب الآن . ولكن عمر قال له ان يذهب بعد غياب الشمس .

وصراخ صدره يهتف الشمس غابت . وماذا يعني بعد غياب الشمس ؟ متى ؟ بلحظة . بساعة .

بماذا . وقفز فوقف أمام شجرة السرو وقد أصبح جسده شمسا جديدة تطل على القرية الآن .

الآن . سأذهب الآن . واتجه نحو البيت الأخضر ليحصد موسم الزيتون . اندفع كقذيفة مدفع تختصر المسافة والزمن . كانت العيون الخضر قد غابت عن النافذة . ومع دقات قلبه التي اختلطت بدقات قبضته على الباب، وجد نفسه وجها لوجه يغرق في معصرة الزيتون . الوجه الصبوح ..

العيون المتألقة تحدق في وجهه.

-من أنت. ماذا تريد ؟

-أريد أم صالح. أرسلني مازن.

كان مرتبكا نظر خلفه وحوله واندفع إلى الداخل بعفوية وهو يردد من جديد مغلقا خلفه الباب .

-أريد أم صالح. أرسلني عمر من طرف مازن.

-من أنت ؟

سقط عليه السؤال من أعلى . شعر انه جاء من السماء ولكنه التفت ناحية المصطبة التي تعلو عنه بضعة درجات . أمامه امتدت قامة شامخة وعيون خضراء هي صورة مجسمة لعيون الفتاة التي فتحت له الباب . قال وهو يغوص في حنان عيون السيدة التي تحب الثورة والفدائيين .

ـ انا مجاهد . أرسلني عمر الأشقر . صاحب مازن .

اتجهت ناحيته نازلة درجات المصطبة ببطء وهي تحدق في وجهه وتسأله .

ـ مازن من ومن هو هذا الأشقر الذي أرسلك ؟

ـ عمر هو قائد دوريتنا . قال انك تعرفينه عندما جاء مع مازن . واخبرني انك سيدة تحب الثورة وتحب الثوار

-أين هو ؟

-في البيارة. عند المغارة.

مدت يدها نحو مجاهد . خاف . تراجع . اتسمت اندفع إليها بفرح . اصبح في ظلال حنانها .

-تعال

أمسكت يده وصعدت به الدرجات إلى فوق . في صدر الصالون صورة .. وقف مجاهد . تسمر في المدخل نظر خلفه باتجاه البيارة . وتمتم في سره مصلح . مصلح هنا . نظر إلى الفتاة الحلوة كانت إلى جانبه وعيونها الخضر تلقي عليه هالة من الحنان . التفت نحو السيدة كانت يداها تمسك يده بحنان وتشده إلى الداخل وعندما تسمر أمام الصورة . ظننته خائفا . فقالت .

ـ لا تخف . تفضل . البيت بيتك . لعيون مازن كل شيء يضيء .

وظل متسمرا مكانه . يحدق في الصورة ولكنه يتلقى الأوامر من جديد، إياك والثرثرة .. لا تتكلم كثيرا مع أهل البيت ولا تقل أدبك . فقط التموين واتصال يحيى بعمر بسرعة .

قطعت السيدة سرحانه وهي تردد بفرح مشيرة إلى الصورة في صدر الصالون .

ـ هذا صالح ابني . انه يدرس في أسبانيا دكتور .

صالح، مصلح ... ما الفرق .. نفس الصورة ..نفس الشخص إياك والثرثرة هل ستقل أدبك أين نحن ؟ لذلك كان موقف مصلح منه قاسيا . معه حق والد ليلى جارته ضربه لأنه غازلها . ومصلح من حقه ان يوبخه وهو يتغزل هذه البنت الحلوة . قد تكون أخته وقريبته .

-قلت شو اسمك ..

-مجاهد ..

-اسم حلو. مازن كيف حاله ..

-مازن استشهد. معنا عمر الأشقر صاحبه.

ابتسمت . سرح فكرها قليلا هل هذا الشبل حقا من مجموعة فدائية أم انه مدفوعا من قبل الأعداء ؟ قد تكون هذه إحدى لعبات السلاخي ومحاولاته القذرة لابتزازها وتوريطها .

حدقت في وجهه بصرامة وجدية .

ـ هل أرسلك عمر حقا أم أرسلك اسلخي ؟

حدق مجاهد في عينيها الغاضبتين .

ـ من اسلخي ؟ انا لا اعرف أحدا اسمه اسلخي أرسلني عمر قائد دوريتنا . وارتفعت أصوات طرقات على الباب . ذهبت الفتاة لتفتحه بينما بدأ الخوف يغزو قلب مجاهد . وبدأت نظراته تبحث عن مكان للاختباء فكر القفز بسرعة من خارج هذا البيت إذا شعر بخطر التقت عيناه بعيني مصلح في الصورة . هذه هي أم مصلح وهو معنا . ولماذا أخاف . أستطيع أن اخبرها انه معنا في البيارة إذا تعقد الأمر . ولكن الثرثرة ممنوعة . ويبدو انه لا يريدها ان تعرف . قال للسيدة

-لا تبلغي عني الأعداء .. قال عمر انك تحبين الثورة

ارتفع صوت السيدة ..

-من يا سلمى ؟

-هذا يحيى يا أمي.

انزوى مجاهد قرب مدخل الصالون بينما كان يحيى يقفز درجات المصطبة . ويلهث محدقا في عيني والدته وهو يتمتم

-انهم في البيارة .. وفي المغارة ..

-مين ؟

-الفدائيون

ولاحظ وجه مجاهد فسأل

-أنت منهم. الفدائيون.

وسألته أمه.

ـ وكيف عرفت انهم فدائيون . هل نسيت خطط الأعداء لتوريطنا .

ـ ولو يا أماه .. هل يخفى القمر ؟

قال مجاهد مستعيدا الثقة بنفسه .

ـ أنت يحيى . لقد رأيتك ليلة الأمس في البيارة وأنت تطرد الرجل والمرأة من المغارة .

انتقلت نظرات أم صالح من وجه يحيى إلى وجه مجاهد نفس السن والملامح المتقاربة نفس الاندفاع والرجولة المبكرة . وبين وجهيهما كانت عيون سلمى تشكل مصدر ضوء يزيد من صلابة المنظر ويؤكد تماسكه .

ـ هل رأيتني حقا .. أين كنت ؟

ـ كنا نستطلع المكان قبل وصول الدورية . وقد أرسلوني لتأمين الطعام لهم . كما ان الأخ عمر قائد الدورية يريدك بسرعة من أجل الاتصال بأبي عزيز هذه كل مهمتي . والباقي عليك أنت .

نظر إلى عيني سلمى . كانت غابة الزيتون البري تشده إلى حيث لا يدري تذكر انها أخت مصلح .

طأطأ رأسه خجلا وهو يردد ..

ـ الآن سأذهب للأخوة .. ونحن في الانتظار .

اتجه ناحية الباب ولكنه توقف فجأة والتفت إلى الصورة في صدر الصالون (مصلح .. انه مصلح) أغمض عينيه والتفت خارجا يقفز درجات المصطبة، ووقع على الأرض ارتفع صوت أم مصلح .

ـ على مهلك يا أبني يحميك الله .

ـ لا تخافي . الجسم النامي قابل للصدمات فتح الباب . وانطلق كالسهم نحو البيارة.

الجزء السادس عشر

(16)

البرنس على وجه مصلح يسهل له الاقتراب من عمر الذي كان يشرح ليحيى خطة العمل ليبلغها لأبي عزيز كم كان سعيدا وهو يكتشف من جديد تلك الطاقات الكامنة في يحيى أبو وردة . الابن ..

ـ لقد تأمن كل شيء يا أخ عمر (قال يحيى) وأبو عزيز والمجموعة جاهزة حسب الأوامر . لقد أمن برميل زيت كامل وهو مستعد لعمل اشتباك عند المنعطف إذا كان ذلك يفيد .

قال عمر.

ـ لا نريد اشتباكات. كل ما نطمح اليه هو ان يتغير اتجاه دورية العدو إلى طريق التياسير الترابية.

هناك سنفاجئهم نحن. وبراميل زيت سيقوم بالمهمة شرط ان لا يترك أثرا. يكشف أحد من المجموعة خاصة أبو عزيز. هل فهمت؟ ـ طبعا. الزيت موجود في جلنات بلاستيك وبعد لحظات من سكبه على الأرض ستتحول الجلانات إلى رماد في فرن العيسوى. واطمئن. أبو عزيز لا يترك شاردة أو واردة. ـ إذن اتفقنا. الليلة الساعة التاسعة. وعطلوا السيارات المدنية من المرور على طريق طوباس الزبابدة بأي طريقة .

أنجه يحيى نحو بيته وهو يشعر باعتزاز وفخر انه لا يقل أهمية عن مجاهد . وعمر يذكره بمازن الذي كان يحبه . لقد بكى يوم عرف ان مازن استشهد ولكنه كان فخورا بنتائج المعركة التي خاضها مازن . الرجال لا يموتون هدرا وهو يريد ان يعيش على هامش الحياة في الأرض المحتلة . إذن لم يكن له دور يؤكد انتماؤه فما هو معنى الحياة إذن وما هي معاني الأشعار الوطنية التي كتبها وينشرها في جريدة الحائط الوطن والوطنية . والفداء، والحرية كلمات وضعها على جريدة الحائط ويهيج بها مشاعر الطلبة . ولكنه الليلة سيكون أهم من كل الأشعار ومن كل الجرائد سيذهب بنفسه مع أبو عزيز . سيفرض ذلك وان أعترض لصغره فسيخبره أن مجاهد أصغر منه . قطع عشرات الأميال ليأتي إلى هنا . المسافة بين طوباس والمنعطف لا تزيد عن كيلو مترين . وهناك سيشهد كيف ستتولى عربات العدو ولتسقط في المنحدر تمنى لو أنه قادر على حفر بئر بترول قرب طوباس ليجعل الزيت يمتد من طوباس إلى عقابه . ويغمر الكفير والزبابدة حتى لا تستطيع أية سيارة للعدو السير .

البترول العربي في الخليج على قفى من يشيل . ونحن نجمع برميل زيت وسخ بالقطارة . نحن نحارب العدو ببقايا البترول والعدو يحاربنا بنفط العرب . تذكر قصيدته التي منعها مفتش اللغة العربية من ملامسة الحائط بحجة انها تسيء للأنظمة العربية كان أسمها نابالم ولون الحروق على أجساد الأطفال يحمل رائحة الخليج العربي . ولكنها أصبحت القصيدة الوحيدة التي يحفظها كل الطلاب . قال عمر لمصلح .

-نحن في مأزق وعلينا حله بسرعة.

-أية مأزق ....؟

ـ النجدات الأساسية للعدو ستأتي من معسكر الزبابدة وهي التي يجب عزلها ومنعها من الوصول إلى ارض المعركة بأية وسيلة لا زلت أخشى أن يتغلب العدو على حاجز الزيت ويستمر عبر طوباس عن طريق الفارعة .

ضحك مصلح .

ـ لا تخف . انه ملزم بالعبور عبر التياسير . خطتك سليمة ولا تخشى المفاجآت ومع ذلك فعليك ان تحتاط واعتقد ان

الوقت قد حان لنشرح للشباب خطة العملية بوضوح ان معرفتهم أهميتها سيجعلهم أكثر إقداما على تنفيذها ومنع أي ثغرة من التأثير على النتائج .

ـ سأبلغهم جميعا . علينا ان لا نضيع الوقت . الساعة الآن حوالي السابعة . يجب ان نأخذ مواقعنا ونزرع الألغام في الأماكن المحددة قبل الثامنة والنصف .

ـ لقد مرت أيام ونحن في هذه المنطقة استطلعناها جيدا وعرفنا كل حناياها والآن سنشرح لكم طبيعة المهمة التي سننفذها الليلة .

التفت إلى أبو إبراهيم وقال .

ـ الأخ أبو ابراهيم، والأخ مجاهد عليهما البقاء في الخارج للمراقبة وسنخبرهم بمهمتهم بعد شرحها للشباب .

خرج أبو ابراهيم ومجاهد من المغارة . واستطرد مصلح .

ـ يسمح لي أخي عمر بشرح المهمة . إننا لسنا دورية استطلاع أو كمين، نحن دورية عزل مهمتها منع وصول نجدات العدو إلى منطقة المواجهة الليلة الساعة الثامنة ستبدأ معركة على طول خط المواجهة من سويمه التركمانية شمالا حتى مخفر سويسة جنوبا وستندفع قواتنا من القطاع الأوسط والشمالي للهجوم على مواقع المواجهة التي يصل طولها خمسة وعشرين كيلو مترا مستهدفة التركمانية أم سدرة أم الوتاد، زهرة التجار، أم نخلة ومواقع أخرى قرب الجفيلك والعوجا، والتلة الحمراء . ان معسكر العدو في الزبابدة سيكون المصدر الأول والأهم للنجدة ومهمتنا قطع هذه الإمدادات وعزل النجدات .

الألغام التي لدينا تكفي لتدمير عدد من آلياته ولكننا سنتصدى له في حالة ضعف هامة بعد التياسير مباشرة . مئات المقاتلين من إخواننا سيعبرون الليلة لمهاجمة العدو في مواقعه على خط المواجهة . ونحن مهمتنا ان نمنع العدو من الوصول لنجدة هذه المواقع حتى نحقق أهدافنا الكبيرة، الليلة سيغرق نهر الأردن بسيل الرجال أبطال الذين سيصنعون نصرا جديدا ومن نوع جديد .

ونحن نشكل صمام أمان حقيقي لضمان النصر، نحن القادرون على أن نجعل حراب الفتح تغوص إلى عمق قلب العدو فتورثه مقتلا . مهمتنا الليلة ستكون مكملة للمعركة الكبيرة ولكنها أساسية بالنسبة لها . وبدونها قد تصاب عملية العبور الكبير بالفشل لا سمح الله . لأن وصول نجدات العدو يعني المزيد من خسائرنا وهذا ما لا يجب ان يحصل أبدا .

الليل .. وطرقات على الباب الخارجي تشتد وتتلاحق . ولا صوت غير الطرقات . تطلعت أم صالح نحو يحيى .

ـ قوم يا أبني . شوف مين . لا تفتح إلا لما أقول لك وقفز يحيى إلى المصطبة ثم الفناء التحتي وسأل

-مين ؟

-أنا

-أنت مين ؟

-أنا ابراهيم.

-ابراهيم مين ؟ .. اسلخي

-أيوه

-يا سافل ماذا تريد !؟

-أريد أمك

كانت أم صالح قد وقفت على حافة المصطبة وطلت إلى الخارج . ورغم الظلام شاهدته وحيدا .

وسرح فكرها بعيدا انها ليست المرة الأولى التي يضايقها فيها هذا الوغد. ولكنه لم يتصرف بمثل هذه الوقاحة منذ زمن . وحتى لا تترك ليحيى مهمة التحاور معه تدخلت سائلة .

-ماذا تريد يا سلخي ؟

-أريدك في أمر هام

-وما هو

ـ هل سنتحدث هكذا . دعيني أدخل .

ـ نتحدث هكذا . وكثير عليك ان نتحدث معك . قل ما عندك وانصرف .

كان ضوء سيارة يقترب نحو البلدة من الناحية الجنوبية وبدأت أشعته الهزيلة تقترب شيئا فشيئا وتلقي بعض أضوائها على وجه السلاخي . كانت قرصته للاستفادة منة هذا الضوء . فقال ـ يوجد مخربون في المغارة . وتحت الأشجار في أرضكم وسأخبر الدولة عنهم . جئت أخبرك بذلك .

فهل لديك رأي آخر .

كانت السيارة تقترب . وكانت أضوائها تزداد وضوحا على وجه السلاخي فتظهر ملامحه الشامتة شيئا فشيئا وفي داخل أم مصلح طغى شعور بالمفاجأة وبالخوف من التهور . قالت ليحيى ـ افتح الباب . دعه يدخل

وبهت يحيى

ـ ماذا ؟ هذا الكلب يدخل بيتنا

صرخت في وجهه متجهة نحو الباب

ـ قلت لك أفتح الباب

وعبر السلاخي إلى الفناء ومرت السيارة بسرعة أمام البيت . أغلقت أم صالح الباب .

-ماذا تريد ؟

كان المصباح الكهربائي في الفناء يلقي ضوئه الخافت على وجه السلاخي فتمتم وهو يغرس نظراته في وجه أم صالح .

ـ أريد سلامتك . أنت والأولاد .

ـ نحن بخير وسلامة . ولكن . هل صحيح ان في المغارة أحد . كيف عرفت .

شد يحيى يد السلاخي بشدة وهو يردد

ـ هل عدت إلى المغارة مه العاهرة . وهل تعتقد ان أسيادك الصهاينة سيحمونك من الأبطال .

شدت أم صالح على رقبة ابنها مخفضة من حدة صوته وضحك السلاخي بملء فمه وهو يردد ـ أيها البطل الصغير . أم كل جيوش دولكم العربية انهزمت في ستة ساعات فهل تحلم بحرية اكثر من تلك التي حققها لك وجود اليهود . وهل توحدت فلسطين إلا بوجودهم. إلا تستطيع أنت السفر إلى يافا وحيفا وكل مكان أما ناصر

وعرفات فلا يستطيعون الوصول إليها إلا بالإذاعات .

كانت أم صالح تفكر كيف ستخرج من هذا المأزق ان أهم أمر لديها هو سلامة الشباب ولكنها لا تدري كيف تؤمن هذه السلامة . شيء واحد وضعته نصب أعينها وهو ان السلاخي يعرف بوجودهم . والسلاخي الآن داخل بيتها ولن يخرج منه إلا بعد ان تتأكد من سلامتهم . انهم الأهم والأغلى في حياتها انها على استعداد لعمل أي شيء من أجل إنقاذهم . وبدأت لهجتها تنساب في تيار الليونة وهي تتحدث إلى السلاخي .

ـ بس يا ابراهيم أنت شفت الشباب وتحدثت معهم

رد مبتهجا .

ـ طبعا . شفتهم . وعديتهم . ولكنني لم أتحدث اليهم ولم أدعهم يرون وجهي يبدو انهم اكثر من عشرين شخصا . انه صيد سمين للدولة وضربة قاصمة للمنظمات التخريبية.

فغر يحيى فاه وهو يستمع إلى أمه تقول

ـ أرجوك يا ابراهيم . لا تقل المنظمات التخريبية

ابتسم السلاخي وهو يتمتم مغمض العينين .

ـ لعيونك يا فاطمة . أقول المنظمات الفدائية أو ثورة حتى النصر ...

قال يحيى بغضب

-كلب سافل

واندفع نحو الباب خارجا متجها نحو المغارة بغريزة المنقذ والمخلص من هذه الورطة .

امتقع وجه السلاخي واتجه نحو الباب لولا ان أم صالح أمسكت به صائحة .

مهلا يا ابراهيم .. لا تتعجل . انه طفل . ابقى معي

* * * *

دخل مجاهد مسرعا إلى المغارة يلهث

-جاء يحيى ..

انزوى مصلح بسرعة في زاوية المغارة ووقف عمر يستوضح الأمر ...

قال يحيى وهو يلهث مضطربا

ـ السلاخي علم بوجودكم . وسيخبر العدو عليكم إجراء ما يلزم . وكان مصلح يغلي غيظا من المفاجأة ..

لف كوفيته على وجهه مخفيا معالمه وسأل يحيى

-أين السلاخي .. الآن

-في بيتنا . جاء يهدد أمي.

امسك مصلح يد عمر وخرج معه من المغارة متوجها نحو ابراهيم وقد حاصره شعور بخطر داهم .

* * * *

ارتجف السلاخي كعصفور خرج من وكر ماء وهو يستمع إلى صوت فاطمة تطلب منه ان يبقى معها واهتز كعصفور ينفض الرذاذ عن ريشه . وشعر بكافة أعضائه تنحدر خاضعة أمام شموخ فاطمة الانثوي . قالت له فاطمة

-تفضل إلى الداخل.

وسبقته صاعدة درجات المصطبة .

كانت سلمى تقف فوق المصطبة تراقب كل شيء وعندما دخل السلاخي إلى الصالون همست أم صالح في إذن سلمى ان تذهب بسرعة وتخبر أبا خالد عواد بالأمر وتطلب منه المجيء فورا .

وعندما طرقت سلمى الباب خلفها قفز السلاخي مرتابا

ـ ماذا في الأمر ؟ أين ذهبت سلمى ؟

ضحكت أم صالح وقالت بدلال مصطنع

ـ هل تريدني أم تريد سلمى

ابتسم السلاخي وكأن الدنيا أصبحت ملكه .

أنت . أنت العزيزة الوحيدة . والحب الكبير الذي جعلني مجنونا . ولا مجنون ليلى، ولا مجنون عبلة، ولا مجنون كليوبترا . انا مجنون فاطمة .

اقترب منها

قطبت حاجبها بعصبية وابتعدت عنه وهي تردد

ـ انك تتعدى على حرمات البيوت الشريفة . هل تعرف جزاء هذا الاعتداء .

ضحك . قهقهة . ثم سكت فجأة ورسم ابتسامة صفراء وقال .

ـ البيوت الشريفة هي التي تحترم أمن الدولة ولا تفتح صدرها ومغاراتها للمخربين . والبيوت الشريفة تحافظ على سلامة الشباب فلا تعرضهم للخطر وتلقيهم في الزنازين . ما ذنب يحيى يا صاحبة البيت الشريف حتى تلقي به في السجن بتهمة إيواء ومساعدة المخربين، وما ذنب سلمى حتى تلقى جسدا بين أنياب ذئاب المحققين . يا صاحبة البيت الشريف انني أدعوك للمحافظة على شرف البيت . ولذلك أتقدم طالبا يدك على سنة الله ورسوله .؟ دون اعتداء . وإلا فأنني ذاهب لأقوم بواجبي كمسؤول عن أمن الناس والأرض من المخربين وأعوانهم .

اقترب منها

نفرت منه.

سمع صوت سيارة . خرج إلى المصطبة لمح ضوئها قادما من بعد ابتسم وهو يتمتم .

ـ انهم قادمون . أما ان قسمي انك لي وإلا أخبرتهم بالأمر . اقترب منها برباطة جأش . احتضنها .

دفعته بشدة

-لا بأس. لا بأس. إذا كان الأمر كذلك

نزل إلى الفناء السفلي متجها نحو الباب الخارجي اهتز أصيص الزهور على حافة المصطبة أمام عيني فاطمة

رأت الزهور ترقص .. وتتكوم ..

رأت وجه مازن يطل مبتسما من بين الزهور كان يوما غير عادي . طوباس التي عاشت بالأمس حالة استنفار نفسي شامل وهي تراقب المعركة التي لم تشهد مثلها من قبل. في حرب حزيران لم تسمع أصوات الرصاص مطلقا . واليوم طوباس مطوقة، مرصونة بأعداء يفيض الحقد من وجوههم .

وعرف أهل البلدة ان المعركة التي حصلت كبدتهم خسائر كبيرة في مقابل شهيد واحد أسروا جثته بحقد القوها في الساحة العامة وطلبوا من أهل البلدة التعرف عليها .

كان الصهاينة يعتقدون ان عدد من الذين قاتلوهم هم من أهل البلدة . وانهم لا يزالون فيها وابتدأت حملة تفتيش رهيبة .

الرجال يمرون قرب جثة الشهيد . يلقون نظرة وداع عليه . ويعبرون للحراس الصهاينة عن جهلهم بهويته وطلب الصهاينة حضور طوابير النساء . الرجال قد يتحملون أعصابهم، أما النساء فما أسرع اكتشاف تأثرهن . هكذا اعتقدوا .

كانت تعرف انه واحد من الشباب . وحمدت الله انها لم تعرفهم جميعا كان مازن آخر من توقعته شهيدا ذلك الجبل العملاق الممتلئ حيوية واندفاعا لا يمكن ان يستشهد . ولا يمكن ان تؤثر روحه المتوثبة رصاصات هذا العدو الدنيء اقتربت ببطء وهي تتمالك أعصابها . منذ لمحت الجثة . عرفته .

مازن كان جسده يحتل من الساحة العامة أضعاف المساحة التي يحتاجها الرجل العادي . وكان ثلة من جنود العدو يقفون قرب رأسه يوجهون رشاشاتهم نحوه قالت في نفسها، انهم لا يزالون يخشونه حتى بعد استشهاده واقتربت منه، كانت قدماه تلتصقان عند الأخمص وترتفعان في الهواء راسمتين علامة (7) أول شيء تراه وأنت تقترب من الجثة كانت علامة النصر مرسومة بالجيتر الذي كان له شرف ملامسة قدمي الشهيد . وعندما حاذت قدميه كانت لا تزال تحدق فيها رسمت علامة النصر بكل أعضاء جسدها حتى شعرها كان يقفز راسما آلاف علامات النصر . تشبثت بالنظر إلى قدميه . كانت تخشى النظر إلى وجهه تمنت ان تبقى في ذاكرتها آخر صورة لوجهه الجميل وبدأت مساحات نظرها تتجه نحو وجهه ببطء شديد كان بطنه مغطى بكيس من الخيش الذي لا يتناسب مع جلال الموقف . قفزت نظراتها إلى وجهه متجاوزة الصدر . كان وجهه الباسم قطعة نصر مبروزة في إطار من الأرض، تشتهي ان تظل في مخيلتك إلى الأبد . انها أول مرة ترى فيها ميتا يبتسم وعندما وقعت نظراتها على وجه الجنود قرب رأسه، وشاهدت رشاشاتهم التي سددوها نحو وجهه الباسم . ابتسمت . اقتربت من الوجه اكثر، واكثر حتى صارت قرب الرشاشات وفجأة قالت دون وعي موجهة حديثها للجنود ..

-انه حي .. حي .. انه يبتسم ...

تراجع الجنود إلى الخلف فجأة . اندفعت لإملاء الفراغ الذي تركوه قرب رأسه وهي تصيح .

-الله أكبر

وارتفعت صيحات النساء اللواتي أحطن بالشهيد

ـ الله اكبر .. تحيا فلسطين .

وأخرجت من عبها باقة الزهور التي قطفتها وجمعتها من سور المصطبة .

فنثرتها على صدره . وابتدأت الزهور والورود تخرج من بين صدور النساء ومن تحت ملاءاتهن حتى غمرت جسد الشهيد تاركة لوجهه مساحة العبور بالابتسامة النافذ كالسهم الساخر إلى قلوب الأعداء . ولقد حيّة فرصة التعبير عن النصر . بعد ذلك المشوار الطويل من النضال .

* * * *

اهتز أصيص الزهور على حافة المصطبة . رأته يرتفع لتحتضنه راحتاها . ألقت به على رأس السلاخي مرة واحدة .

تمدد أمام الباب في الفناء والتراب يغمر وجهه مرت سيارة الدورية الصهيونية مندفعة أمام الباب ثم توقفت فجأة .

قلب فاطمة يدق بصخب . وعيونها تتجه ناحية البيارة واندفعت إلى السور تطل على الشارع . رأت سلمى تتجه نحو البيارة . وأبا خالد عواد يتحدث إلى سائق السيارة.

سلمى تطرق الباب . قالت لها أمها .

ـ انتظري قليلا .. سأفتح .

تحركت السيارة . اندفعت أم صالح قافزة من المصطبة إلى الفناء . كان جسد السلاخي ممتدا على مقربة الباب . فتحت الباب دخل أبو خالد عواد وعندما أغلقت سلمى الباب خلفها كان أبو خالد يقف مذهولا أمام جسد السلاخي .

ـ ماذا جرى ؟

هل اعتدى عليك هذا الوغد ؟

انحنى فوق الجسد قلّبه باحثا عن لآثار النبض فيه .

تطلع إلى فوق يحلق في وجه فاطمة الذي كان يكسوه النور الباهت لمصباح الفناء.

-مات

انتفضت سلمى من الخوف ملتصقة بأمها .

واستطرد أبو خالد .

ـ هل كان ضروريا ان تقتليه يا فاطمة ؟

سرحت فاطمة قليلا قبل ان تجيب . ثم تسائلت بسرعة .

ـ المهم يا أبو خالد . ماذا نفعل الآن .

تأوه أبو خالد

ـ صحيح انه يستحق الموت مئة مرة . ولكن . لماذا أنت ؟

ارتجفت فاطمة وتمتمت

ـ ولذلك طلبت منك الحضور لتخلصني منه في الوقت المناسب . كاد ان يطعنني في الصميم . لو لم أخرسه وأعطله عن الوشاية بالشباب لكان ابني صالح ضحيته الأولى.

نظر أبو خالد عواد إليها متسائلا باستغراب

ـ وما دخل ابنك صالح في الموضوع . ما الذي يجمع بين طوباس وأسبانيا ؟

ثم أي شباب سيشي بهم السلاخي ؟

ـ في البيارة . دورية مقاتلين، صالح معهم تسائلت سلمى بفرح

ـ صالح أخوي معهم .. صحيح يمه ؟

وسألها أبو خالد

ـ وكيف عرفت انه معهم . ألم أحضر لك منذ شهر رسالة منه من أسبانيا هل أصبح صالح الخضر الأخضر فدائي وطالب في نفس الوقت .

هزت رأسها كمن يحاول ان يجمع أفكارا تحاول الشرود وقالت

ـ ابني صالح .. الله يرضى عليه ويكفيه شر أولاد الحرام وبنات الحرام ترك أسبانيا . والتحق بالعاصفة منذ سنتين . وكان مع الدورية التي استشهد فيها مازن .

بتذكر المعركة . وهو الآن هنا في البيارة . ولا أريد أن يعرف أنني أعرف

وتسائل أبو خالد عواد مستغربا

-وكيف عرفت ؟

ـ قلب الأم . قلب الأم ما بيخرم يا أبو خالد .

ـ والرسائل التي ترسليها له . والرسائل التي يرسلها لك . ماذا تعني ؟

ـ تعني انه من جهته يحاول ان يراعي مشاعري، ويطمئنني . ومن جهتي أحاول مسايرته من جهة .

ومن جهة أخرى بضمن وصول مكاتيبه وأخباره أول بأول .

-لم أفهم.

لو عرف صالح انني اعرف انه التحق بالعاصفة كان بطل يبعث لي مكاتيب من زمان .

وعادت فاطمة تحدق في الجثة وتسائلت :

ـ المهم يا أبو خالد ماذا نفعل ألان .

كانت الأصوات في الخارج تقترب وسمع طرق خفيف على الباب

ـ مين (قالت سلمى)

وقفزت أم مصلح إلى المصطبة لتطل على الشارع وهوي تتمتم

ـ لا تفتحي

ـ رأت يحيى ومعه شابان .هتف

ـ افتحي بسرعة وقفزت إلى الفناء

دخل يحيى ومجاهد وشاب ملثم . كان منظر الرشاش بيد الشبل مجاهد يدفع الدم الهادر في عروق أبي خالد عواد جعله يشعر بالفخر والاعتزاز . اتجه نحو الشاب . كانت الكوفية تغطي وجهه تاركة لعينيه فرصة العبور إلى الفناء احتضنه أبو خالد ثم قبل الشبل وهو يردد .

ـ لا بأس أيها الأبطال لا تفزعوا . لقد نفذت أم صالح حكم الشعب بالخائن الذي كان يريد يشي بكم والآن، يمكنكم الاستمرار بمهمتكم . وسنتخلص نحن من الجثة . وإذا كنتم بحاجة لأي شيء أأمروا .

كان الشاب يستمع إلى أبي خالد وعيونه تخرج من بين طيات الكوفية تحدق في وجه أم صالح . لم يشاهدها منذ سنوات . لقد كبرت . وكان مجاهد يراقب سلمى وقلبه ينبض بعاطفة جارفة، هذه آخر ليلة له في طوباس . وهذه آخر مرة ينظر فيها إلى هذا الوجه الجميل . كان لا يفكر في معركة الليلة . ولا في هذه الجثة التي تمددت في الفناء . كان قلبه ينبض بفرح .

قال الشاب.

ـ سأحمل الجثة الآن إننا سنغادر البيارة فورا .. الليلة تنتهي مهمتنا . وهذه الجثة سنجعلها مصيدة قاتلة للأعداء . ولن يعرف أحد ما جرى هنا . انفجرت أسارير فاطمة وهي تستمع إلى أبو خالد عواد يقول :

ـ إذن خير البر عاجله . الآن . سأحمله أنا

-لا

-قال الشاب

ـ لقد جئت لهذا الغرض . كنت أتوقع أن أجده حيا ولكن لا بأس أنتم أبقوا هنا . سأذهب انا ومجاهد فقط . يحيى لديه مهمة أخرى . تصرفوا وكأن شيئا لم يكن .

انحنى نحو الجثة . كان جسد السلاخي ضئيلا وهزيلا . فلم يجد الشاب صعوبة في حمله على كتفيه . وطلبت من مجاهدة ان يخرج مع يحيى لاستطلاع الطريق .

فتح يحيى الباب وخرج مع مجاهد . وفجأة، سألت سلمى أمها . وهي تحدق في عيني الشاب .

ـ وصالح يا أمي إلا تريدين رؤيته ؟

سقطت الجثة عن ظهر الشاب وقد صعقه سؤال سلمى سقطت مع الجثة كوفيته فبدا وجهه واضحا تحت ضوء الفناء الخافت كان لسانه يتمتم سائلا :

صالح مين ؟ :

لاحظ عيون فاطمة تحدق في وجهه وملامح أبو خالد عواد تقفز لسؤالها

ـ من ؟ .. خليل ؟ ...

احتضنه أبو خالد من جديد واحتضنته أم مصلح وهي تتمتم متمالكة أعصابها .

ـ لا تهتم لها يا ابني انها تهذي من الخوف روح الله يوفقكم ويبعد عنكم أولاد وبنات الحرام . عاد خليل يحمل الجثة وهو يحدق في عيني أم صالح أتجه نحو الباب وهو لا يزال يحدق في وجهها .

تبعته إلى الباب . كان يحيى قد عاد ليخبر ان الطريق آمنة . همست أم صالح في إذن خليل ـ مع السلامة يا خليل .. أرجوك لا تخبر صالح بشيء . مع السلامة الله يقويكم ويبعد عنكم شر أولاد الحرام وبنات الحرام ..

الجزء السابع عشر

(17)

تصريح ناطق عسكري رقم 696 في الساعة الواحدة والنصف من صباح اليوم الرابع من أيلول سبتمبر 1969
أدلى ناطق عسكري باسم قيادة الكفاح المسلح الفلسطيني عن عمليات قوات العاصفة رقم 818 بما يلي :

بناء على الأوامر الصادرة قامت عدة مجموعات من ثوارنا ليلة الرابع من أيلول سبتمبر 1969 بتنفيذ عملية (حراب فتح) في هجوم كبير امتد من التركمانية شمالا إلى مخفر السويمة جنوبا على واجهة طولها 22 كم واستهدفت اثنا عشر موقعا في آن واحد هي : التركمانية، أم سدرة، الكرنتينا، الطمونية، أم الوتاد، زهرة النجار، أم نخلة، وموقع 347 ناقص وثلاثة مواقع ما بين الكرنتينا والجفتلك ومعسكر الجفتلك العوجة، والتلة الحمرا .. وقبل بدء الهجوم تمكنت قوات العزل من قطع جميع الطرق التي يمكن ان يستخدمها العدو لتقدم نجداتهم واحتلت مواقعها دون ان يكشفها العدو .

كما استطاعت قوات الإسناد ان تأخذ مراكز لها، وفي ساعة الصفر المحددة لهذا الهجوم وهي الساعة الثامنة والربع اقتحمت وحدات الاقتحام تحصينات العدو واشتبكت معه بعد فتح الثغرات في خطوطه الدفاعية المحصنة . وقد استطاع ثوارنا السيطرة على عدد من المواقع سيطرة تامة واحتلت مواقع أخرى لمدة من الوقت .. يقوم ثوارنا الآن بضرب مواقع مناورات العدو في معسكرات الجفتلك العوجا . هذا وما تزال المعركة مستمرة في بعض المواقع حتى الساعة الواحدة من صباح اليوم .

الرابع من أيلول سبتمبر 1969 .